فلسفة



فريدريك نيتشه

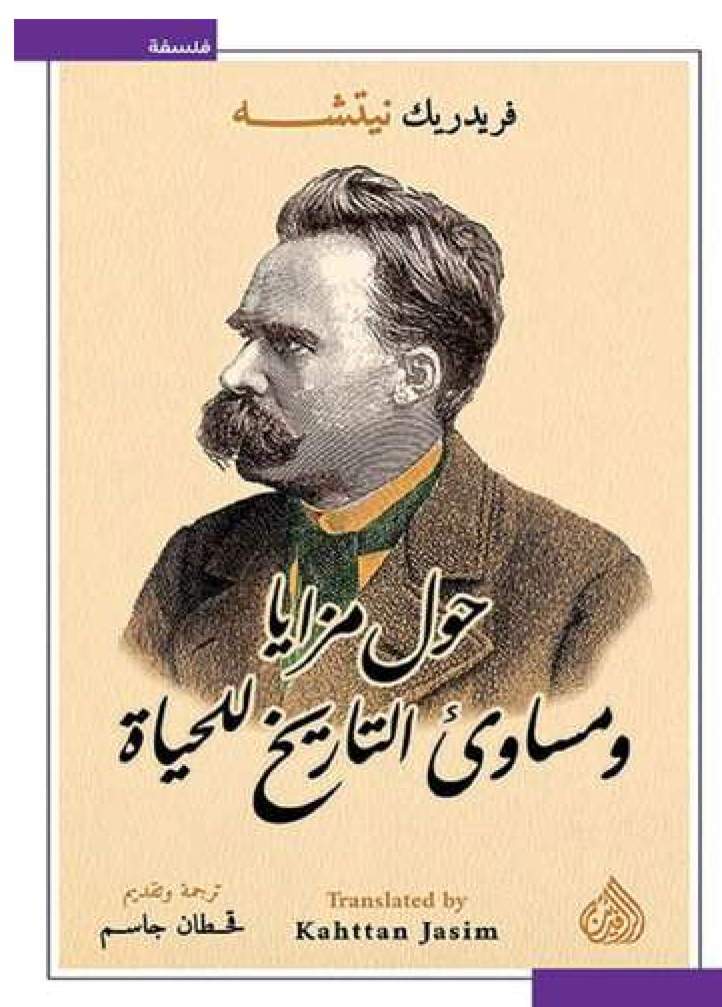
حول مزايا ومساوئ التاريخ للحياة

ترجمة وتقديم
قحطان جاسم

Translated by
Kahttan Jasim



الفصل 1


فلسفة
فريدريك نيتشه
حول مزايا
ومساوئ التاريخ للحياة
ترجمة وتقديم
قحطان جاسم
Translated by
Kahttan Jasim


تليجرام: هنا سور الأزبكية

الفصل 2

حول مزايا ومساوئ التاريخ للحياة

فردريك نيتشه

ترجمة وتقديم قحطان جاسم

حول مزايا ومساوئ التاريخ للحياة

فردريك نيتشه

ترجمة وتقديم: قحطان جاسم

تمت ترجمة الكتاب عن الإنكليزية:

Untimely Meditations، Edited by Daniel Breazrale and Translated by R. J. Hollingdale، 1997

وطُوبق مع النص الألماني:

Friedeich Nietzsche، Vom Nutzen und Nachteil der historie für das leben، Germany: Sommer & Søhne، Feuchtwagen. 1962

Translated by Kahttan Jasim

الطبعة الأولى: يونيو - حزيران، 2021 (1000 نسخة)



لبنان - بيروت/الحمرا

تلفون: +961 1 541980/+961 1 345683

بغداد - العراق/شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

info@daralrafidain.com | dar alrafidain

daralrafidain@yahoo.com | Daralrafidain

www.daralrafidain.com | @daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 38 - 0

الفصل 3

تقديم

هذا هو الكتاب الثاني من مجموعة نصوص كتبها الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه بين الأعوام 1873 ــ 1876. وقد صدر الكتاب في شباط عام 1874.

كان نيتشه قد أعد مخططاً لإصدار ثلاثة عشر نصاً يعالج فيها قضايا عصره ومفكريه، غير أنه لم يحقق مشروعه، وانتهى به المطاف إلى إصدار أربعة نصوص فقط. وبترجمة هذا الكتاب أكون قد أنجزت ترجمة هذه النصوص الأربعة، التي تصدر عن دار الرافدين، كي تتاح فرصة للقارئ لتكوين فكرة عن تصورات نيتشه في تلك المرحلة وموقفه من بعض معاصريه وطريقة تناوله لأفكارهم.

المعروف أن تلك النصوص صدرت فيما بعد في كتاب واحد تحت عنوان «تأملات في غير أوانها» أو خارج زمنها (Unzeitgemässe Betrachtungen).

تُرجِمَ الكتاب الحالي عن الإنگليزية، لكنني مع ذلك أجريت مطابقة للنص الأصلي بالألمانية في العديد من المواضع، كلما أحسست بتعقيد الصياغة وعدم مرونتها، والشعور بضرورة التدقيق في النص الأصلي. ومثال على ذلك، فقد فضلت ترجمة العنوان من الألمانية «Vom Nutzen und Nachteil der Historie»، حيث لاحظت وجود ترجمات مختلفة للعنوان إلى الإنگليزية، من بينها:

Peter Preuss, on advantage and disadvantage of history for life(1)

Adrian Collins, on the Use and Abuse of history(2)

ثم ترجمة R. J. Hollingdale التي اعتمدتها في ترجمتي الحالية. هناك أيضاً بعض العبارات أو المفردات التي أرى أنها تختلف في النص الألماني عما هي في النص المترجم إلى الإنگليزية، فمثلاً يترجم مفهوم «Bildung» الألماني إلى «ثقافة» بالإنگليزية وهي ترجمة غير دقيقة، والأصح هو «تربية»، أو «تعليم» أو «تهذيب» أو «تحضر» أو «تثقيف»، وهو الأمر الذي أخذت به.

ربما يتساءل قارئ ما: لماذا لم أترجم النص الأصلي المكتوب بالألمانية، واعتمدت بدلاً من ذلك النص المترجم إلى الإنگليزية؟ وجوابي هو أن إتقاني للإنگليزية وخبرتي بالترجمة فيها يقابلها انعدام خبرتي في الترجمة من الألمانية ومحدودية إتقاني لها، وهو الذي منعني من ذلك، تجنباً للوقوع في مطبّات لا تخدم النص بل تسيء إليه، ناهيك بالعبث فيه، والفضل يعود إلى زوجتي ليز جاسم بمراجعة ما كان ضرورياً في النص الألماني.

وقد أضفت أيضاً بعض الهوامش إلى النص، سواء فيما يتعلق بترجمة بعض المفردات أو التعريف الموجز بأسماء الأشخاص الذين ذكرهم نيتشه دون أي ذكر أو إشارة عنهم في الكتاب.

تناول نيتشه في نصوصه الثلاثة السابقة أسماء بعينها، كفاغنر، وشوبنهاور، وشتراوس، لكي يطرح من خلالها بعض تصوراته الفكرية حول الاختلاف، على سبيل المثال، بين الثقافة الحقيقية والمزيفة، بينما تنصب مناقشته في هذا الكتاب على «العلاقة بين التاريخ ودراسة التاريخ والحياة البشرية».(3)

ميزّ نيتشه بين ثلاثة أشكال لدراسة التاريخ وهي: الأثري والقديم والنقدي. وكما تشير مقدمة كتاب «تأملات في غير أوانها» إلى أن السمة الأهم في كتابه الحالي هي «الطريقة التي يسعى فيها مؤلفه في نفس الوقت إلى الاعتراف بالتاريخية التي لا مفر منها للوجود البشري، وتأكيد القدرة الإبداعية للبشر للتغلب على أنفسهم وماضيهم، والبدء في بناء علاقة جديدة بالزمن بشكل عام والماضي بشكل خاص».(4)

لكن نيتشه يحذر من هيمنة النظرة التاريخانية إلى الحياة: «بقدر ما يكون التاريخ في خدمة الحياة، فإنه يكون في خدمة قوة لا تاريخية، وعلى هذا النحو يكون تابعاً، فلا يمكن ولن يصبح أبداً علماً خالصاً مثل الرياضيات مثلاً».

وقد ألقت النظرة التاريخانية في زمنه ظلالها القاتمة على الثقافة السياسية والتعليمية في ألمانيا آنذاك، التي تستخدم التاريخ كأداة لخدمة الحياة والماضي لتأكيد الهوية القومية الجديدة.

لهذا لم يكن نقدُ نيتشه مقصوراً على الثقافة السياسية والتعليمية القائمة في ألمانيا، بل كان، علاوة على ذلك، حسب أحد الباحثين، رداً على «الأزمة داخل الثقافة السياسية للدولة القومية الألمانية الجديدة بعد الحرب البروسية ــ الفرنسية في الأعوام 1871 ــ 72.»(5) حيث حفزت تلك الحرب طرح سؤال الهوية وقضية بناء الدولة القومية، وبالتالي موضوعة العلاقة الوثيقة بين السياسة والتاريخ، وعليه يمثل نقد نيتشه للصلة الوثيقة بين السياسة والتاريخ، في نفس الوقت، نقطة مركزية في نقده للحداثة، حيث أشار إلى أن الإقرار بـ«قوة الماضي في فرض ادعاءاته على المستقبل يشكل دائماً تهديداً مباشراً لمشروع الحداثة».(6) على الرغم من أن نيتشه لا يلغي دور التاريخ كلياً في تشكيل هوية الإنسان.

لذا نراه يعود مرة أخرى في كتابه الحالي إلى السؤال المركزي، الذي يتمحور حول هذه الذات، ويتعلق بموضوعة جوهرية طرحها في معظم كتبه: ما الذي يشكل الذات الحقيقية؟ أو كما يكتب: «اسأل نفسك، لماذا أنت موجود، وإذا لم تتمكن من الحصول على إجابة أخرى، فحاول مرة واحدة تبرير معنى وجودك».

وهكذا يمكن القول، إن تناول نيتشه للتاريخ ومناقشته للأطاريح السائدة آنذاك كانت محاولة نقدية لإعادة النظر في مفهوم التاريخ وعلاقته بالتعليم والمنظومة التربوية والثقافية وتشكيل الهوية القومية، من خلال إلقاء الضوء

على طبيعة الثقافة عموما، والنظام التعليمي وكيفية استخدام هذا النظام لمفهوم التاريخ في الحياة اليومية، ثم إنه طالب الوسط الأكاديمي بالنظر أكثر إلى المستقبل وعدم الاكتفاء بالتركيز على الماضي، ثم كيفية توظيف التاريخ والماضي في خدمة الحاضر والحياة.

«دعونا على الأقل نتعلم بشكل أفضل كيفية توظيف التاريخ لغرض الحياة»، أو كما يضيف نيتشه: «إنها محاولة لمنح أنفسنا، إذا جاز التعبير، ماضٍ بَعْدِيّ يرغب المرء أن ينحدر إليه، على عكس الذي ينشأ فيه: ــ وهي محاولة خطيرة دائماً، لأنه من الصعب جداً معرفة حد لإنكار الماضي، ولأن الطبيعة الثانية عادةً ما تكون أضعف من الأولى. كثيراً ما نتوقف عند ما هو الخير دون فعل ذلك، لأننا نعرف أيضاً ما هو الأفضل دون أن نكون قادرين على القيام به. لكن هنا وهناك تحقق، مع ذلك، انتصار، وبالنسبة للمنخرطين في هذا الصراع، بالنسبة إلى أولئك الذين يستخدمون التاريخ النقدي في خدمة الحياة، هناك عزاء رائع: وهو معرفة أن تلك الطبيعة الأولى كانت ذات مرة طبيعة ثانية وأن كل طبيعة ثانية منتصرة ستصبح الأولى».

قحطان جاسم

(1) انظر: Peter Preuss, on Advantage and disadvantage of history for Life, Hackett Publishing, 1980.

(2) انظر: Adrian Collins, on the Use and Abuse of history, Mineola, New York: Publications, INC., 2019.

(3) Introduction, Friedrich Nietzsche, Untimely Meditations, tr. R.J. Hollingdale, Cambridge University Press, 1997, p. xiv.

(4) Ibid., XV.

(5) Christian J. Emden, «Toward a Critical Historicism: History and Politics in Nietzsche’s Second ‘Untimely Meditation’» Modern Intellectual History, 3:1, (2006).

(6) اقتُبس من:

Aexandria Miller, On the Advantage and Disadvantage of History for Life ـ Modernism Lab (yale.edu).



الفصل 4

استهلال

«علاوة على ذلك، أكره كلّ ما يُرشدني فقط دون تعزيز نشاطي أو تحفيزه على الفور». تَصلح كلمات غوته(7) هذه، التي عُبِّر عنها بجرأةٍ ولكن لي رأيي، (8) أن تكون بداية مناسبة لملاحظاتنا حول قيمة وعدم قيمة التاريخ. هدفي هو توضيح سبب أن تعليماً دون معرفةٍ، ومعرفةٍ تثبط العمل، وتاريخاً باعتباره إسرافاً ورفاهية بشكل مكلف ـ هي أمور يتوجب، باستخدام عبارة غوته، أن نكرهها ـ وذلك لسبب بسيط، هو أننا ما زلنا نفتقر حتى إلى أبسط الضروريات التي نحتاج إليها، والفائض عدو الضروري. بالتأكيد، نحن بحاجة إلى التاريخ، لكن حاجتنا إليه هي لأسباب تختلف عن تلك التي لأجلها يحتاج العاطل المدلل في حديقة المعرفة إلى التاريخ، بغض النظر عن التعالي النبيل الذي قد ينظر به إلى احتياجاتنا وآلامنا الفجة وغير الرفيعة. أي إننا بحاجة إليه من أجل الحياة والعمل، وليس من أجل التهرب بشكل مريح عنهما، ناهيك بالتستر على الحياة الأنانية والعمل الجبان والخسيس. نرغب في أن نخدم التاريخ فحسب إلى المدى الذي يخدم فيه الحياة: لكن هناك طريقة لممارسة التاريخ وتقييمه، الذي تضمر الحياة فيه وتتدهور: هي ظاهرة من المحتمل أن تكون مؤلمة بقدر ما هي ضرورية لتشخيص الأعراض اللافتة للنظر في عصرنا الحالي.

لقد سعيتُ إلى وصف شعور كان يعذبني في كثير من الأحيان، وأنا أنتقمُ بعرضه للجمهور. ربما سيحفز هذا الوصف شخصاً أو آخرَ ليخبرني أنه يعرف هذا الشعور أيضاً، لكنني لم أشعر به بشكل نقي وأصيل، ولم أعبّر عنه بما يستحق من ثقة ونضج خبرة. ربما يصرح قلّة من الناس بهذا التأكيد، لكن

معظمهم سيقول إنه شعور منحرفٌ تماماً وغير طبيعي ومثير للاشمئزاز وغير شرعي تماماً، وفي الواقع سيقولون إنني قد أثبتّ من خلال الإحساس به أنني لا أستحق ذلك التوجه التاريخي القوي لعصرنا، والذي أظهر نفسه لجيلين، كما هو معروف، وخاصة بين الألمان. على أيّ الحال، فإن حقيقة تجرُّئي على وصف طبيعة مشاعري سيعزز آداب اللياقة العامة بدلاً من إلحاق الضرر بها، لأنه سيوفر للعديد فرصةً لقول أشياءَ من قَبِيل المجاملة حول التوجه المذكور سلفاً لعصرنا. لكنني سأحصل على شيء أكثر قيمة حتى من اللياقة ــ أن يتم إطلاعي بشكل علني وتوضع الأمور في نصابها الصحيح بشأن طابَع عصرنا.

هذا الاعتبار في غير أوانه أيضاً، لأنني أحاول هنا أن أفهم شيئاً يفخر به عصرنا بحقٍّ ــ وهو تعليمه(9) التاريخي ــ على أنه ضار به، ويمثّل خللاً وعيباً فيه، لأنني أعتقد أننا جميعاً نعاني، في الواقع، من حُمّى تاريخية مضنية ونحن على الأقل في حاجة إلى الاعتراف بأننا نعاني منها. ولكن إذا كان غوته محقاً في تشديد القول إننا عندما نهذب فضائلنا فإننا في نفس الوقت ننمّي أخطاءنا وإذا كان يمكن، كما يعلم الجميع، لفضيلة متضخمة ــ مثلما يبدو الإحساس التاريخي لعصرنا فضيلةً متضخمة ــ أن تتسبب في زوال شعب بنفس سهولة فِعلِ رذيلة متضخمة: فربما سيُسمح لي بالتحدث هذه المرة. ولتخفيف العبء عني، ينبغي لي أن لا أخفي حقيقة، أولاً، أنني استخلصت بشكل أساسي الحوادث التي أثارت في داخلي تلك المشاعر المُعذبة من تجاربي الخاصة، وأنني استفدت من تجارب الآخرين للمقارنة فقط، وبقدر ما أنا تلميذ الأزمنة السابقة فقط، وخاصة اليونانية، فقد مررت، كطفل في عصرنا، بمثل هذه الخبرات في غير أوانها. ولكن لا بد من أن أكون قادراً على الاعتراف بهذا كثيراً لنفسي بصفتي عالماً لغوياً كلاسيكياً: لأنه ليس لديّ أيّ فكرة عن أهمية فقه اللغة الكلاسيكية في عصرنا، إن لم يكن في غير أوانه ــ أقصد القول إنه بالعمل ضد الزمن وبالتالي بالتأثير فيه، لنا أن نأمل بأن يكون في صالح المستقبل.

(7) هو الشاعر الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته (1749 ــ 1832).

(8) باللاتينية في الأصل Ceterum censeo. ويعني «أنا أقترح»، أو «فضلًا عن ذلك»، وهو تعبير خاص عادة ما يستخدم لإنهاء خطاب من خلال التشديد ولفت الانتباه إلى وجهة نظر غير مرتبطة بالحديث.

(9) ترجمة لـ Bildung، والتي يمكن ترجمتها أيضاً إلى «تهذيب»، تدريس، تعليم، تربية.

الفصل 5

ـ 1 ـ

تأمل في قطيع الماشية الذي يرعى أمامك: إنه لا يميز بين الأمس واليوم. إنه يتقافز، ويأكل، ويسترخي ويجترّ ما يأكله، ثم يتقافز مرة أخرى، وهكذا من الصباح حتى الليل ومن نهار إلى نهار، مقيَّداً باللحظة وسرورها أو استيائها، وبالتالي لا هو بكئيب ولا يشعر بالملل. هذا مشهد صعبٌ على الإنسان رؤيته، فعلى الرغم من أنه يحسب أنه أفضل من الحيوانات لأنه إنسان، فإنه لا يسعه إلا أن يحسدها على سعادتها ـ فما تملكه، حياة لا تشعر بالملل أو الألم، هو ما يريده بالضبط، ومع ذلك لا يستطيع الحصول عليه لأنه يرفض أن يكون كحيوان. قد يسأل إنسانٌ حيواناً: «لماذا لا تتحدث معي عن سعادتك بل تقف وتحدق إلى وجهي فقط؟». سيود الحيوان أن يجيب قائلاً: «هذا لأنني دائماً ما أنسى على الفور ما أردت أن أقوله»، ـ لكنه نسي حينها هذه الإجابة أيضاً، وظلّ صامتاً: تاركاً الإنسان لدهشته.

لكنه تساءل عن نفسه أيضاً، وكيف أنه لم يكن قادراً على تعلّم النسيان بل يتشبث دائماً بما كان ماضياً: وبغض النظر عن المسافة أو السرعة التي يندفع بها، فهذا القيد يجري معه. وهي مسألة تثير التساؤل: اللحظة، الآن هي هنا ثم لاحقاً تمضي، لا شيء قبلها ولا شيء بعدها، مع ذلك فإنها تعود كشبح وتعكّر صفو اللحظة القادمة. مراراً وتكراراً تنفك ورقة من سجل الزمن وتسقط، تحلق بعيداً ـ وفجأة تطفو عائدة ثانية وتسقط في حِجْر الإنسان. ثم يقول الإنسان: «أنا أتذكر»، ويحسد الحيوان الذي ينسى في الحال والذي يرى كيف تتلاشى كلّ لحظة، وتغوص في الليل والضباب وتنطفئ إلى الأبد. هكذا يعيش الحيوان بشكل غير تاريخي: لأنه يتوارى تماماً في الحاضر، مثل رقم، دون أن

يخلّف وراءه شيئاً مربكاً، إنه لا يعرف كيف يرائي، ولا يخفي شيئاً ويظهر في كلّ لحظة كما هو تماماً، لذلك لا يمكن أن يكون أي شيء آخر سوى أن يكون صادقاً. وعلى النقيض من ذلك، يستعد الإنسان لمواجهة عبء الماضي الكبير والمتعاظم: إنه يدفعه نحو الأسفل أو يحنيه، ويَعُوق مِشيته مثل عبء غير مرئي ومظلم يمكنه أن يتظاهر بالتنصل منه أحياناً، والذي هو سعيد جداً للتبرؤ منه عندما يكون بين رفاقه من البشر لإثارة حسدهم. ذلك هو السبب في أن رؤية قطيع يرعي، أو حتى رؤية طفل، بنحو أقرب اليه، الذي لا يملك حتى الآن شيئاً من الماضي ليتنصل منه، يلعب في جهل هانئ بين أسوار الماضي والمستقبل، تحركه وكأنها رؤية فردوس مفقود. ومع ذلك، يجب إرباك لعبته، إذ سوف يُستَدعَى في القريب العاجل من نسيانه. بعد ذلك سوف نفهم عبارة «لقد كان»: تلك الكلمة التي تجلب للإنسان الفتنة والمعاناة والملل، بحيث يُذَكَّر بما هو وجوده أساساً ــ زمن ماضٍ لا يمكن أن يكتمل ولا يصبح حاضراً أبداً. ثم يجلبه الموت أخيراً إلى النسيان الذي يتوق إليه كثيراً، ويقمع بنفس الوقت الحاضر، وبهذا يضع ختمه على معرفة أنّ الوجود ليس سوى شيء مستمر {شيء «كان» واستمر}، شيء يعيش من خلال نفي نفسه واستهلاكها ومناقضتها.

إذا كانت السعادة، إذا كان السعي إلى سعادة جديدة هو ــ بأي حال من الأحوال ــ ما يربط الكائنات الحيّة بالحياة ويجعلها تستمر في العيش، فربما لا يوجد فيلسوف على حق أكثر من المتهكم (الكلبي):(10) إن سعادة الحيوان، باعتباره المتهكّم الكامل، هي برهان حيّ على حقيقة التهكم. أصغر سعادة، إذا كانت موجودة بلا انقطاع وتجعلك سعيداً، هي دون مقارنة سعادة أكبر من السعادة الأكبر التي تحصل كحادث محض، وإذا جاز التعبير كنزوة جامحة أو حماقة في وسط الاستياء الصرف والرغبة والحرمان. لكن في حالة السعادة الصغرى أو الكبرى، فدائماً ما يكون هناك الشيء الوحيد الذي يجعل السعادة سعادةً: القدرة على النسيان، أو ــ بالتعبير عن ذلك بطريقة أكثر علمية ــ القدرة على الشعور بشكل لا تاريخي على مدار استمرارها بالكامل. مَن لا

يستطيع أن يستقر على عتبة اللحظة وينسى الماضي تماماً، والذي لا يمكنه أن يقف في نقطة واحدة دون خوف أو دوار مثل إلهة النصر، لن يعرف أبداً ما هي السعادة ــ والأسوأ من ذلك، إنه لن يفعل أي شيء أبداً يُسعِد الآخرين. تَخَيّل أكثر الأمثلة تطرفاً عن إنسان لا يملك القدرة على النسيان على الإطلاق، والذي حُكم عليه لذلك أن يرى في كل مكان حالة صيرورة: مثل هذا الإنسان عاد لا يكون مؤمناً بوجوده، ولا مؤمناً بذاته، إذ سيرى كلّ شيء يتدفق في جزيئات مضطربة متحركة، وسوف يفقد نفسه في مسار الصيرورة هذا: وبالكاد يجرؤ في النهاية، مثل تلميذ حقيقي لهرقليطس، على رفع أُصْبُعه. كلّ عمل يتطلب النسيان، تماماً كما أن وجود كل الأشياء العضوية لا يتطلب النور فحسب، بل والظلام أيضاً. إن إنساناً أراد أن يختبر الأشياء بطريقة تاريخية شاملة سيكون مثل شخص أُجْبِر على عدم النوم، أو كحيوان فُرِض عليه أن يحيا فقط عن طريق الاجترار والاجترار المتكرر الدائم. وبعبارة أخرى: من الممكن أن نعيش دون ذاكرة تقريباً، وأن نعيش، علاوة على ذلك، بسعادة كما تُبين لنا الحيوانات، لكن من المستحيل تماماً العيش دون نسيان البتة، أو ــ لأعبّر عن موضوعي بأكثر بساطة ــ: هناك درجة من الأرق، من الاجترار {التفكُّر}، من الإحساس التاريخي، تكون ضارةً ومميتة في النهاية لكل ما هو حيّ، سواء أكان إنساناً أم شعباً أم ثقافةً.

من أجل تحديد هذه الدرجة، وبالتالي الحدود التي يجب عندها نسيان الماضي، إذا لم نُرِد أن يصبح هذا الماضي حَفّار قبر الحاضر، علينا أن نعرف بالضبط كم هي عظيمة قوة خلق(11) الإنسان أو الشعب أو الثقافة، أعني بهذه القوة الخلاقة تلك القدرة على أن يطوّر المرء نفسه الفردية من تلقاء نفسه، وأن يشكّل ويستوعب في نفسه كل ما هو ماضٍ وأجنبي، وأن يعالج الجروح، ويُعَوّض ما فُقد، ويعيد خلق أشكال محطمة. هناك بشرٌ يمتلكون القليل جداً من هذه القوة لدرجة أنهم قد ينزفون حتى الموت من تجربة واحدة، وغالباً من جرّاء حدث مؤلم واحد، وبشكل خاص حتى من ظلم خفيف واحد، كما من جرح صغير جداً. في المقابل، هناك أولئك الذين تأثروا قليلاً جداً

بأسوأ كوارث الحياة وأفظعها، وحتى بأفعالهم الشريرة، بحيث بينما ما تزال هذه تحدث أو على الأقل بعد وقت قصير منها، يكونون قادرين على بلوغ مستوًى مقبول من الرفاهية والضمير المرتاح. كلما كانت جذور طبيعة الإنسان العميقة أقوى، كان قادراً أكثر على استيعاب الماضي وملاءمته بالقوة، وستتميز الطبيعة الأقوى والأعظم بحقيقة أنها لن تعرف أي حدّ يمكن عنده لحساسيتها التاريخية أن يكون لها تأثير خانق وضار، إذ سوف توائم وتدمج في نفسها كل ما مضى، ماضيها هي وكذلك ما كان أجنبياً، وستحوّله إن جاز التعبير إلى دمها. مثل هذه الطبيعة تعرف كيف تنسى كل ما لا يقهرها، فهذه الأشياء عادت غير موجودة. إن أفقها مغلق وكامل، ولا شيء قادر على تذكيرها بأن وراء هذا الأفق يوجد بشر وعواطف وتعاليم وأهداف. وهذا مبدأ عام: لا يمكن أن يكون كائنٌ حيٌّ صحياً وقوياً ومثمراً إلا ضمن نطاق محدد، إذا لم يكن قادراً على رسم أفق حول نفسه وفي نفس الوقت أنانياً للغاية بحيث يعجز عن إحاطة منظوره الخاص ضمن أفق غريب، فإنه سوف يتلاشى ببطء أو يسرع إلى نهايته في الوقت المناسب. البهجة، والضمير الحيّ، والعمل البهيج، والإيمان بالمستقبل ـ كل هذا يعتمد، في حالة الفرد كما في حالة الشعب، على إنْ كان هناك خط يفصل بين ما هو لامع ومشرق من جهة، وما هو غير مضيء وغامض من جهة أخرى، وعلى معرفة المرء كيف ينسى الأشياء في الوقت المناسب تماماً، كما يعرف كيف يتذكر في الوقت المناسب، وعلى إن كان المرء يشعر بغريزة قوية لإدراك أي مناسبات ينبغي أن نختبرها بشكل تاريخي وأيّ منها بشكل غير تاريخي. هذا هو على وجه التحديد الافتراض الذي دُعي إليه القارئ لتأمُّله: التاريخي وغير التاريخي ضروريان بنفس القدر لصحة الفرد والشعب والثقافة.

بادئ ذي بدء، لا بد على الجميع أن يبدي ملاحظة هنا: يمكن أن تكون المعرفة والحس التاريخي للإنسان محدودين للغاية، ويمكن أن يكون أفقه ضيقاً مثل أفق سكان وادي جبال الألب، وقد ينطوي كل حكم من أحكامه على ظلم ويمكنه تمييز كل تجربة خاصة به بالاعتقاد الخاطئ بأنه أول من اختبرها ـ

ومع ذلك، وعلى الرغم من كل الظلم وكل الأخطاء، فهو يقف هناك بصحة فائقة وحيوية تُفرح كل من يراه، في نفس الوقت يقف إنسان بجانبه أعدل وأكثر تعلُّماً منه، يمرض وينهار لأن خطوط أفقه تتغير باستمرار بلا كلل، لأنه لا يستطيع تخليص نفسه من الشبكة الأكثر حساسية لعدالته وحقيقته، ليجد طريق عودته ثانيةً إلى الحاجة والرغبة الفجة. على النقيض من ذلك، رأينا الحيوان، وهو اللا تاريخي تماماً، يسكن في أفق ليس أكبر من مجرد نقطةٍ، ويعيش مع ذلك في درجة معينة من السعادة، أو على الأقل دون ملل ونفاق، لذلك يجب علينا النظر في القدرة على العيش إلى درجة ما بشكل غير تاريخي على أنها أكثر حيوية وجوهرية، بقدر ما تشكّل الأساس الذي يقوم عليه شيء ما عادلٌ وصحي وعظيم، أي شيء بشري حقاً يكون قادراً على النمو فيه. اللا تاريخي يشبه البيئة المحيطة التي يمكن فيها وحدها أن تعيش الحياة، والتي تختفي بتدمير هذه البيئة. ومن الصحيح أن الإنسان لا يصبح إنساناً إلا عندما يحدّ من هذا العنصر اللا تاريخي عبر التفكير والتأمل والمقارنة والتحليل واستخلاص النتائج، وفقط عندما يتولّد ضوءٌ ساطع وامضٌ قزحي الألوان داخل تلك السحابة المحيطة ــ أي من خلال القدرة على توظيف الماضي لأجل الحياة، وإعادة تشكيل الحوادث الماضية مرةً أخرى ــ لكن الإنسان في فائض من التاريخ يكفّ مرةً أخرى عن الوجود، ودون هذا الغطاء اللا تاريخي لَمَا كان له أن يبدأ أو أن يجرؤ على البدء أبداً. أيّ صنيع سيكون الإنسان قادراً على عمله إذا لم يكن قد دخل أولاً تلك المنطقة الضبابية لغير التاريخي؟ أو إذا أردنا أن نتخلى عن هذه اللغة المجازية ونوضّح بالمثال: تخيل إنساناً طغت عليه عاطفةٌ محمومة لامرأة أو لفكرة عظيمة، إلى أي مدًى سيصبح العالم مختلفا بالنسبة إليه! ينظر خلفه فيبدو لنفسه كأنه أعمى، ويصغي إلى ما حوله فلا يسمع إلا ضجيجاً باهتاً لا معنى له؛ وكل الأشياء التي يدركها، إنّما يدركها كما لو أنه لم يدركها سابقاً ــ كلّ شيء قريب بشكل واضح، ملوّن، مدوٍّ، كما لو كان يدركه بكل حواسه دفعة واحدة. غُيِّرَت كل تقييماته وحُطَّ منها. هناك كثير من الأشياء التي عاد غير قادر على تقييمها على الإطلاق، لأنه بالكاد يشعر بها بعد الآن: يسأل نفسه لمَ كان مُغَفّلاً لفترة

طويلة بعباراتِ وآراء الآخرين، إنه مندهش من أن ذاكرته تدور وتدور في دائرة بشكل دؤوب، ومع ذلك فهي ما تزال ضعيفة جداً ومُرهَقة بحيث لا يمكنها القيام حتى بقفزة واحدة خارج هذه الدائرة. إنها أظْلَمُ الظروف في العالم: ظرف ضيق الأفق، جاحد للماضي، أعمى عن الأخطار، أصَمّ بإزاء التحذيرات، ظرف يكون فيه المرء دوامة صغيرة من الحياة في بحر ميت من الظلام والنسيان: ومع ذلك فإن هذا الوضع ـ وهو لا تاريخي ومضاد للتاريخ بالكامل ـ ليس رَحِمَ العمل الظالم فحسب، بل وكل عمل عادل أيضاً، ولن يبتكر أي فنان لوحة، ولن يحقق أي جنرال انتصاراً، ولن ينال أي شعب حريته دون أن يكون قد رغب مسبقاً وسعى إلى تحقيق هذه الأعمال في مثل هذا الوضع اللا تاريخي. تماماً كما أن مَن يتصرف، على حد تعبير غوته، هو دائما بلا ضمير، فإنه دائماً دون معرفة أيضاً. إنه ينسى معظم الأشياء لكي يفعل شيئاً واحداً، إنه ظالم لما يكمن وراء ظهره، ويعترف بحق واحد، حق الذي يظهر إلى حيز الوجود فقط. وهكذا فإن كل من يعمل يحب صَنِيعَه أكثر مما يستحق من الحب: وخير الأعمال يتمّ في مثل هذه الوفرة من الحب، وبغض النظر عن كل شيء، فإنها لا بدّ أن تكون غير جديرة بهذا الحب، حتى لو كانت قيمتها كبيرة بشكل لا يُحصى.

إذا كان أي شخص قادراً، في كثير من الحالات، على أن يشم ويتنفس مرة أخرى هذا الجو اللا تاريخي الذي حدث فيه كل حدث تاريخي عظيم، فإن مثل هذا الشخص سيكون قادراً، ككائن معرفي، على رفع نفسه إلى وِجهة نظر فوق تاريخية كالتي وصفها نيبور(12) ذات مرة باعتبارها النتيجة المحتملة لتأملات تاريخية. وهو يقول: «إن التاريخ يكون مفيداً لشيء واحد على الأقل، إذا فُهم بوضوح وبشكل مفصّل: وهو أنه يُمكّننا من التعرف على مدى عدم معرفة أعظم وأرفع عقول جنسنا البشري أن عيونهم اتخذت وبشكل عرضي طريقتها في الرؤية، وطالبت بقوةٍ أن يرى الآخرون بنفس الطريقة. بقوة، لأن شدّة وعيهم كبيرة بشكل استثنائي. أي شخص لم يدرك هذا الأمر فإنه بالتأكيد تماماً وفي العديد من الحالات الفردية سيُقهَر بوجود أي عقل قوي

يضع العاطفة الأسمى في شكل معين». يمكن أن يسمى مثل هذا الموقف بـ«فوق التاريخي» لأن الناظر من وجهة الرؤية هذه عاد من الممكن إغواؤه للاستمرار في العيش والمشاركة في التاريخ، إذ إنه سيدرك الشرط الوحيد الأساسي لكل الحوادث ــ ذلك العمى والظلم اللذان يقطنان في روح مَن يعمل، إنه من تلك النقطة فصاعداً سيُعَالَج من أخذ التاريخ على محمل الجد كثيراً، لأنه سيكون قد تعلم من جميع البشر ومن جميع التجارب، أكان ذلك بين اليونانيين أم بين الأتراك، من ساعة واحدة من القرن الأول أو القرن التاسع عشر، ليجيب عن سؤال: كيف أو لأي غرض عاش الحياة؟ أي فرد يسأل معارفه عمّا إذا كانوا يرغبون في أن يعيشوا ثانيةً عَشْرَ السنوات أو عشرين السنة الماضية، فسوف يكتشف بسهولة أيّاً منهم مستعد لوجهة النظر فوق التاريخية تلك: سيجيبون جميعاً بـ«لا!» بالتأكيد، لكنهم سيقدمون أسباباً مختلفة لهذه الإجابة. ربما يواسي البعض منهم نفسه بالادّعاء: «لكن عشرين العام القادمة ستكون أفضل»، عن هؤلاء الناس قال ديفيد هيوم ذات مرة ساخراً:

«ومن ثُمالة الحياة نرجو أن تنال

ما لم يستطع الركض الأول النشط تقديمه».(13)

And from the dregs of life hope to receive

.What the first sprightly running could not give

علينا تسميتهم بشراً تاريخين: فنظرة إلى الماضي تدفعهم نحو المستقبل وتلهب شجاعتهم للاستمرار في العيش، وتوقد أملهم في أن تتحقق العدالة، وأن السعادة تنتظر في الجانب الآخر من الجبل الذي يقتربون منه. يعتقد هؤلاء الأشخاص التاريخيون أن معنى الوجود سيظهر إلى النور أكثر وأكثر في سياق السيرورة، وهم يلقون نظرة خلفهم فقط لفهم الحاضر من خلال

ملاحقة السيرورة السابقة وتعلّم الرغبة في المستقبل بحماسةٍ. ليس لديهم أيّ فكرة عن أنهم يفكرون ويعملون بشكل غير تاريخي، على الرغم من انشغالهم بالتاريخ، ولا يكمن اهتمامهم بالتاريخ في خدمة المعرفة الخالصة، بل في خدمة الحياة.

لكن هذا السؤال الذي سمعنا إجابته للتو، يمكن الإجابة عنه بشكل مختلف أيضاً. بالطبع، مرة أخرى بـ«لا!»، ولكن لأسباب مختلفة: بـ«لا» الإنسان فوق التاريخي الذي لا يسعى إلى الخلاص في سيرورة، والذي بدلاً من ذلك يكون العالم من أجله مكتملاً ويصل إلى نهايته في كل لحظة منفردة. ما الذي يمكن أن تعلّمنا إيّاه عشرُ سنواتٍ جديدة، بحيث لم تستطع عشر السنوات الماضية تعليمنا إيّاه؟

لم يتمكن البشرُ فوقُ التاريخيين أبداً من الاتفاق فيما إذا كان مغزى هذا المذهب هو السعادة أو الاستسلام أو الفضيلة أو الكفارة، ولكنهم وخلافاً لكل الأساليب التاريخية في النظر إلى الماضي، فقد توصلوا إلى إجماعٍ على الفرضية: أن الماضي والحاضر شيء واحد، وهذا يعني أنهما في كل تنوعهما متماثلان في النوع، وباعتبارهما الوجود المطلق للأنواع غير القابلة للتلف، فإنهما يشكلان بُنية ثابتة لقيمةٍ غير قابلة للتغيُّر ومعنًى متطابقٍ إلى الأبد. مثلما تتوافق مئات اللغات المختلفة مع نفس الأنواع الثابتة لاحتياجات الإنسان، حتى يتمكن أي شخص يفهم هذه الاحتياجات من تعلّم أيّ شيء جديد من هذه اللغات، يضيء المفكر فوقُ التاريخي التاريخَ الكامل للشعوب والفرد من الداخل، ويتنبأ باستبصار المعنى الأصلي للهيروغليفيات المختلفة، ويتجنب تدريجياً بإرهاق هذا التدفق المتصاعد المتواصل للعلامات المكتوبة: لأنه كيف يمكنه تجنب الشعور بالشبع بالنظر إلى فائض الحوادث اللا متناهي، ومن ثَم بتخمة مفرطة، وأخيراً بالغثيان! في نهاية المطاف، ربما سيكون الأجرأ من هؤلاء البشر فوق التاريخيين مستعداً ليقول في قلبه، كما قال جاكومو ليوباردي:

لا شيء حيّ جدير بمشاعرك

والأرض لا تستحق الحسرات،

وجودنا ألم وملل والعالم

فضلات ــ لا أكثر.

هدّئ نفسك.

Nothing exists that is worthy

.of your emotions، and the earth deserves no sighs

Our being is pain and boredom، and the world

.is excrement-nothing else

.Calm yourself

لكن دعونا نترك الناس فوق التاريخيين لغثيانهم وحكمتهم: اليوم نريد بدلاً من ذلك أن نبتهج من كل قلوبنا بعدم حكمتنا، ونجعل الأمور سهلة لأنفسنا بلعب دور أولئك الناس النشطين والتقدميين الذين يبجلون السيرورة. ربما يتبين أن تقييمنا لما هو تاريخي ليس أكثر من تحيز غربي: لكن دعونا على الأقل نَمْضِ قدماً وليس مجرد أن نقف مكتوفي الأيدي عند هذه الأحكام المسبقة! لو استطعنا على الأقل تعلم كيفية متابعة التاريخ بشكل أفضل لغرض الحياة! بعد ذلك، سوف نُسَلّم بكل سرور بأن البشر فوق التاريخيين يمتلكون حكمةً أكبر مما نملك، على الأقل، ما دمنا على يقين من امتلاك المزيد من الحياة. فآنئذ، على الأقل، سيكون لعدم حكمتنا مستقبلٌ أكبر من حكمتهم. ومن أجل إزالة

كلّ الشكوك في معنى هذا التناقض بين الحياة والحكمة، سوف أساعد نفسي باستخدام ممارسة طويلة الأمد وأقدّم بعض الأطاريح دون مزيد من اللغط.

عندما تُفهم ظاهرة تاريخية معروفة بشكل كامل وبحت وتُختزل إلى ظاهرة فكرية، تكون محزنة لكل من يفهمها: لأنه يدرك فيها الوهم والظلم والعاطفة العمياء، وبشكل عام الأفق الدنيوي والمظلم كله لتلك الظاهرة، ومن هذا في الوقت نفسه قوتها التاريخية. عند هذه النقطة تصبح هذه القوة عاجزة بالنسبة إليه كإنسان يفهمها، لكنها ربما لم تصبح عاجزة بعدُ بالنسبة إليه كإنسان يعيش.

سيكون التاريخ، بالنظر إليه كعلم خالص وذي سيادة معطاة، بالنسبة إلى البشرية نوعاً من الاستنتاج للحياة وتصفية للحسابات. لكن الثقافة بالحضارات مفيدة وتبشر بالمستقبل عندما تتبع فحسب أَثَرَ سيل جديد من الحياة، على سبيل المثال، عندما تَتْبع ثقافةً متطورة، أي فقط عندما تحكمها وتوجهها قوة عليا، بدلاً من أن تحكم وتوجّه نفسها.

بقدر ما يكون التاريخ في خدمة الحياة، فإنه يكون في خدمة قوة لا تاريخية، وعلى هذا النحو يكون تابعاً، فلا يمكن ولن يصبح أبداً عِلماً خالصاً مثل الرياضيات، مثلاً. لكن السؤال عن الدرجة التي تحتاج إليها الحياة لخدمة التاريخ على الإطلاق، هو أحد الأسئلة والمخاوف العليا التي تَمَسّ بسلامةِ الإنسان والشعب والثقافة. لأن الحياة تنهار وتنحط، عند نقطة فائِضٍ معيّن من التاريخ، وكما هي الحال، يتدهور في النهاية التاريخ نفسه نتيجةً لهذا الانحطاط أيضاً.

(10) Cynicism في إشارة إلى الفلسفة التشاؤمية، وهي مذهب فلسفي أسسه الفيلسوف أنتيستنيس من القرن الرابع ق. م.، وهو أحد أتباع الفيسلوف اليوناني سقراط. والتشاؤميون أشبه بالكلبيين بعدم الثقة بوجود الخير في الطبيعة البشرية. ومن الذين كان لهم أثر بارز في فلسفة التشاؤم

الفيلسوف الألماني شوبنهاور. ويمكن أن تترجم إلى التهكم، السخرية، النابية. وهي هنا بمعنى التهكم والسخرية.

(11) أو قوته التشكيلية.

(12) Carsten Niebour هو الرحالة الدنماركي الشهير كارستن نيبور (1733 ـ 1815).

(13) انظر ديفيد هيوم: Dialogues concerning natural religion: By David Hume

الفصل 6

ـ 2 ـ

أن تكون الحياةُ في حاجة إلى خدمات التاريخ، إنما هو أمر ينبغي فهمه، مع ذلك، بنفس وضوح الافتراض الذي سيُثْبَت لاحقاً ــ أعني به أن المغالاة في التاريخ ضارةٌ بالحياة. يتعلق التاريخ بالإنسان الحيّ من ثلاثة جوانب: إنه يتعلق به ككائن يعمل ويكافح، وككائن يحفظ ويبجل، وككائن يتألم ويسعى إلى الخلاص. تتوافق هذه العلاقة الثلاثية مع ثلاثة أنواع من التاريخ ــ بقدر ما هو مسموح التمييز بين أنواع التاريخ التذكاري، والتاريخ الآثاري،(14) والتاريخ النقدي.

يتعلق التاريخ، أولاً وقبل كل شيء، بالإنسان النشط والقوي الذي يخوض صراعاً كبيراً ويحتاج إلى قدوة ومعلمين ومُعَزّين، لكنه لا يستطيع العثور عليهم بين معاصريه وفي عصرنا الحاضر. هذه هي علاقة الأمر بِشِلر، لأن عصرنا، كما لاحظ غوته: سيئ للغاية لدرجة أن الشاعر لا يواجه أي نوعية مفيدة في حياة البشر المحيطة به. بوليبيوس، على سبيل المثال، كان يفكر في الشخص الذي يتخذ إجراءً {إنسان الأفعال} عندما وصف التاريخ السياسي بأنه الإعداد السليم لحكم دولة، وأفضل معلّم يحذرنا بثبات على تحمل تقلبات القدر من خلال تذكيرنا بمصائب الآخرين. كل من تَعَلّم أن يرى معنى التاريخ في هذا لا يمكنه إلا أن يشعر بالسخط من رؤية السياح الفضوليين أو علماء الأحياء المجهرية المدققين وهم يتسلقون أهرامات عصور الماضي العظيمة: حيثما يعثر على إلهام لتقليده أو القيام بعمل أفضل، فهو لا يرغب في مواجهة العاطل الذي يتطلع إلى التسلية أو الإثارة، ويتجول كما لو كان بين الكنوز المصوّرة المتكدسة في بعض المعارض. وحتى لا يُجَرّب اليأس والاشمئزاز

وَسط هؤلاء العاطلين الضعفاء واليائسين، بين هؤلاء المعاصرين الذين يبدون نشيطين لكنهم متحمسون ومتملقون فقط، يجب على الإنسان الذي يقوم بعمل ما {إنسان الأفعال}، من أجل التقاط أنفاسه، أن ينظر إلى الوراء ويوقف التقدم نحو هدفه. ومع ذلك، فإن هدفه هو نوع من السعادة ــ ليس بالضرورة سعادته، لكن غالباً سعادة شعب أو البشرية جمعاء، إنه يتراجع عن الاستسلام ويستخدم التاريخ باعتباره وسيلة لمكافحته. لا يمكنه أن يأمل، على العموم، أيّ مكافأة غير الشهرة، أي توقع مكان شرف في معبد التاريخ، حيث يمكن بدوره أن يخدم الأجيال اللاحقة كمعلم ومُعَزٍّ وواعظ. لأن وصيته تقول: كل ما كان مرةً قادراً على توسيع مفهوم «الإنسان» ومنحه مضموناً أجمل، ينبغي أن يكون موجوداً إلى الأبد حتى يكون له هذا التأثير دائماً. تشكل اللحظات العظيمة في نضال الأفراد روابطَ في سلسلة واحدة تتحد لتشكل سلسلة جبال بشرية عبر آلاف السنين: أَنَّ أعلى نقطة في مثل هذه اللحظة الماضية الطويلة ما زالت بالنسبة إليّ حيّة ومشرقة وعظيمة ــ هذه هي الفكرة الأساسية للإيمان بالإنسانية التي تجد تعبيراً في المطالبة بالتاريخ التذكاري. لكن هذا المطلب بالتحديد، بأن يكون الشيء العظيم أبدياً، هو الذي يفجر أفظع الصراعات. إذ كل كائن حي آخر يصرخ: «لا!». ينبغي أن لا يظهر التذكاري في الوجود ــ هذه هي كلمة سر أولئك الذين يعارضونه. العادةُ الباهتة والتافهة والشائعة تملأ كلَّ زاوية وركن في العالم، وتتجمع مثل ضباب أرضي كثيف حول كلّ شيء، وتُلقي بنفسها في الطريق الذي يجب أن تسلكه العظمة للوصول إلى الخلود، لعرقلتها وخداعها وخنقها وإسكاتها. لكن هذا الطريق يقود خلال العقول البشرية! من خلال أدمغة الحيوانات المرعوبة وقصيرة العمر التي تعود باستمرار إلى نفس الحاجات وبجهد كبير فقط، لدرء الدمار لفترة قصيرة. لأنها تريد أولاً وقبل كل شيء أمراً واحداً: العيش بأيّ ثمن. مَن يمكنه أن يتخيل أنها ستخوض سِبَاق التتابع الصعب للتاريخ التذكاري الذي يمكن للعظمة وحدها أن تحياه! ومع ذلك، تستيقظ قِلّة، مراراً وتكراراً، تنظر إلى عظمة الماضي، وتكتسب القوة من خلال ملاحظتها إياه، وتشعر بإحساس النشوة، كما لو كانت الحياة الإنسانية شيئاً رائعاً، وكأن أجمل ثمار

هذا النبات المر هي المعرفة بأنه في وقت سابق مَرَّ شخصٌ ما مرةً بهذا الوجود بفخر وقوة، بينما مرّ شخصٌ آخر متأمل، وثالث مفيد ورحيم ــ لكن كلهم يتركون وراءهم الدرس الوحيد: أن أجمل حياة إنما يقودها أولئك الذين لا يحظى الوجود لديهم باحترام كبير. في حين يتشبث الإنسان العادي بهذه الفترة الزمنية بمثل هذا الجشع والجدية القاتمة، فإن أولئك الذين كانوا في طريقهم إلى الخلود والتاريخ التذكاري، عَرَفوا، على الأقل، كيف يعاملونه بضَحك أولمبيادي أو على الأقل بسخرية راقية، وغالباً ما كانوا يذهبون إلى قبورهم بشعور من التهكم ــ إذ ماذا تبقى منهم لدفنه! بالتأكيد ما كان فقط يضطهدهم دائماً، من هَدْرٍ، ورفض، وغرور، وحيوانية، والذي سيصبح الآن في طي النسيان بعد أن ظل لفترة طويلة موضوع ازدرائهم. لكنّ شيئاً واحداً سوف يستمر: طرّة(15) وجودهم الأكثر أصالة، عملٌ، صنيع، إلهام نادر، إبداع: ستعيش لأن الأجيال القادمة لا تستطيع الاستغناء عنها. تكون الشهرة، في هذا الشكل الأكثر تغيراً، شيئاً أكثر من مجرد ألذّ لقمة من حب الذات، كما أسماها شوبنهاور: إنها الإيمان بالتماسك واستمرارية ما هو عظيم في كلّ العصور، وهو احتجاج على تغيّر الأجيال وضد الزوال.

ما هي فائدة وِجهة نظر الماضي التذكاري، إذن، والانهماك بالإنجازات الكلاسيكية والنادرة من الأزمنة القديمة، بالنسبة إلى الإنسان الحاضر؟ إنه يستنتج منها أن العظمة التي كانت موجودة في السابق كانت ممكنة على الأقل في وقت واحد، وبالتالي من المحتمل أن تكون ممكنة ثانيةً. إنه يمضي في طريقه بمزيد من الشجاعة، لأن الشك الذي يداهمه في لحظاته الأضعف قد اختفى الآن ــ ألا يسعى هو في الواقع إلى المستحيل؟ لنفترض أن أحداً ما يعتقد أنه لن يتطلب أكثر من مائة من البشر المنتجين والمتعلمين ويعملون بنفس الروح الجديدة لوضع حد للثقافة التي أصبحت الآن الموضة في ألمانيا: ألا يمكن تأييده بأن ثقافة عصر النهضة قد نشأت على أكتاف مثل هذه المجموعة المكونة من مائة شخص؟

ومع ذلك، حتى نتعلم شيئاً جديداً على الفور من نفس المثال، ما أشدّ ما ستكون هذه المقارنة مرنة ومبدَئِية وغير دقيقة! وإذا توجب أن تكون فعالة، فكم عدد الاختلافات التي ينبغي التغاضي عنها، وبأي عنف يجب أن تُحَوَّل فرديةُ ما مضى إلى شكل عام، وتُفكك كل أركانها الحادة ومخططاتها لصالح هذا التوافق! من حيث الجوهر، في الواقع، ما كان ممكناً مرةً يمكن أن يصبح ممكناً للمرة الثانية فقط إذا كان الفيثاغوريون محقين في الاعتقاد بأنه عندما تحدث كوكبة متطابقة من الأجرام السماوية، فيجب أن تتكرر نفس الأشياء ــ حتى التفاصيل الفردية الدقيقة ــ على الأرض أيضاً: حيث كلما كان للنجوم علاقة معينة ببعضها ببعض، سينضم الرواقي مرة أخرى إلى قوى الإبيقوري لقتل القيصر، وعندما تكون في ترتيب آخر، فسيكتشف كولومبوس أميركا. وفقط إذا بدأَتِ الأرضُ دراماها من جديد بعد انتهاء الفصل الخامس، إذا كان من المؤكد فقط أن نفس تشابك الدوافع ونفس الإله خارج المَكِنة (deus ex machina) ونفس الكارثة تتكرر على فترات محددة، سيكون ممكناً للإنسان القوي أن يرغب في نيل التاريخ التذكاري في صدقه الأيقوني المطلق، أي مع كل حقيقة صُوِّرَت بكل خصوصياتها وتفردها: ولكن هذا من غير المحتمل أن يحدث حتى يصبح علماء الفلك منجمين مرة أخرى. وحتى ذلك الوقت، لن يحتاج التاريخ التذكاري إلى تلك الحقيقة المطلقة: سيستمر في مقاربة الأشياء غير المتطابقة وتعميمها وتحديدها في النهاية، وسيستمر في تقليص الاختلافات في الدوافع والأسباب لإظهار التأثير بشكل تذكاري، على حساب السبب، أي كمثال وكشيء جدير بالمضاهاة: وكنتيجة، ونظراً إلى أنه يتجاهل جميع الأسباب، يمكن للمرء أن يسمي بمبالغة طفيفة التاريخ التذكاري مجموعة من «المُسَبَّبَات في حد ذاتها»، مجموعة من الحوادث التي سيكون لها تأثير في جميع العصور. ما يُحتَفَل به في الاحتفالات الشعبية، في المناسبات الدينية والعكسرية، هو في الحقيقة مثل هذا «المُسَبَّب في حد ذاته»: هذا ما يزعج استراحة الطَّمُوح، وما يكمن كتميمة في قلب المغامر ــ وليس العلاقة التاريخية الحقيقية بين الأسباب والنتائج {المُسَبَّبات}، التي

ستُثْبِت فقط، متى ما فُهِمَت، أن لعبة النرد عن المستقبل والحظ لن تُنتج أبداً ثانيةً شيئاً مطابقاً تماماً لما أُنتج في الماضي.

ما دامت روح تدوين التاريخ تكمن في المنبِّهات العظيمة التي يستمدها الإنسان القوي، وما دام يجب وصف الماضي بأنه جدير بالتقليد وأنه قابل لأن يُقَلَّد وممكن للمرة الثانية، فإنه في خطر أن يصبح مشوهاً إلى حد ما، وأن يُعاد تفسيره بشكل إيجابي، وبالتالي يقترب من الخيال الخالص. نعم، هناك عصور لم تكن قادرة تماماً، في الواقع، على التمييز بين الماضي التذكاري والخيال الأسطوري، لأنه ممكن اشتقاقُ نفس المحفزات من أحدهما كما من الآخر. وهكذا، إذا سادت وجهة النظر التذكارية للماضي على الأنماط الأخرى في النظر إليه، أي على وِجهتَيِ النظر الآثارية والنقدية، فإن الماضي نفسه يصيبه الضرر. تُنسَى أجزاء كبيرة منه وتُحتَقَر، وتُكتَسَح كما لو بمدٍّ رمادي متواصل، ويبرز منه عدد قليل من حقائق مُنَمّقة فردية فقط مثل جُزُر: يبدو أن هناك شيئاً غير طبيعي ورائعاً بشأن هؤلاء الأشخاص النادرين الذين أصبحوا مرئيين على الإطلاق، يشبه إلى حد كبير الورك الذهبي الذي زَعَم تلاميذ فيثاغورس أنهم تعرفوا بواسطته إلى معلمهم. يَخدَعُ التاريخُ التذكاري عن طريق المقارنات: إنه يحفز، بتشابهات مغرية، الاندفاع في الشُّجْعَان والتعصب في المُلهمَين، وإذا تخيّل المرء هذا التاريخ في أيدي ورؤوس الأنانيين الموهوبين والمتطرفين الأشرار، فستُدَمَّر إمبراطوريات، ويُقتل أمراء، ويُحَرَّض على حروب وثورات وعدد من «النتائج التاريخية في حد ذاتها» ــ أي نتائج دون أسباب كافية، إذ تزداد أكثر. بقدر ما هو تذكيرٌ بالضرر الذي يمكن أن يُحدثه التاريخ التذكاري بين البشر الأقوياء والنشطين، بغض النظر عمّا إذا كانوا بشراً صالحين أم أشراراً: فقط تخيّل الأثر الذي كان سيحدث إذا استُولِيَ عليه واستُغِلّ من قِبَل الضعفاء وغير النشطين!

لنأخذ المثال الأبسط والأشيع. تصوّر لنفسك فحسب شخصيات غير فنية، وتلك التي تتمتع بموهبة غير كافية، ملتفةً ومتسلحةً في تاريخ الفن التذكاري:

ضد من ستوجّه هذه الشخصيات أسلحتها الآن؟ ضد أعدائها الألِدّاء، الأرواح الفنية القوية، بعبارة أخرى ضد أولئك الذين هم وحدهم القادرين على التعلم حقاً ــ أي التعلم وعينهم ناظرةٌ إلى الحياة ــ من التاريخ، وترجمة ما تعلموه إلى شكل أعلى من التطبيق العملي. عندما يرقص المشركون المتحمسون حول الضريح عند نصب تذكاري نصف مفهموم من الماضي العظيم، سيُقطع طريقهم، وسيُسَوّد جوُّهم، كما لو كانوا يريدون أن يقولوا: «انظر، هذا هو الفن الوحيد الصادق والحقيقي، ما يُهمك هو الفن الذي بدأ بالظهور إلى الوجود أو لم يتحقق بعدُ!». من الواضح أن هؤلاء الغوغاء الراقصين يتمتعون بامتياز تحديد ما هو «الذوق السليم»، لأن أي شخص يخلقه بنفسه قد كان دائماً في وضع غير مؤاتٍ لأولئك الذين يراقبون فقط ولم يشاركوا بأنفسهم في الخلق، تماماً كما هو الحال في كل الأوقات إذ يكون سياسيُّ الحانة أذكى وأعدل وأكثر تأملاً من رجل الدولة الذي يحكم فعلاً. لكن إذا أَصَر المرء على توظيف عادة الاستفتاء الشعبي والأغلبية العددية في عالم الفن، وبالتالي إجبار الفنان للدفاع، إذا جاز التعبير، عن نفسه أمام هيئة مُحَلَّفين من البَلِيدين من الناحية الجمالية، فيمكنك المراهنة على إدانته: وهذا ليس على الرغم من حقيقة أن قُضاته قد أعلنوا بشكل احتفالي، بل على وجه التحديد بسبب ذلك، مبدأَ الفن التذكاري ــ وهذا هو، وفقاً لتفسيرنا السابق للفن الذي «أنتج تأثيراً» في كل العصور: في حين أن لتقدير كل فن غير تذكاري، لمجرد أنه معاصر، فإن هؤلاء القضاة يفتقرون أولاً إلى الحاجة، وثانياً إلى الميل الحقيقي، وثالثاً وعلى وجه التحديد إلى سلطة التاريخ تلك. من ناحية أخرى، تخبرهم غرائزهم أن الفن يمكن أن يُقتل بالفن: يجب أن لا يظهر الأثر إلى الوجود بأي حال من الأحوال مرةً أخرى، ولمنع هذا يُرَوّجون سلطةَ الأثر التذكاري المُستَمد من الماضي. وبالتالي فهم خبراء في الفن، يرغبون في التخلص من الفن تماماً، وعليه يتظاهرون بأنهم أطباء، في حين أنهم في الحقيقة يرمون إلى إعطاء السم، وهكذا فهم يهذّبون ذوقهم ولسانهم ليوضحوا انطلاقاً من موقفهم الشديد سببَ رفضهم المستمر لجميع الأطباق الفنية المغذّية التي تُقَدّم إليهم. لأنهم لا يريدون ظهور فن عظيم إلى الوجود:

وستراتيجيتهم هي أن يقولوا: «انظر، الفن العظيم مسبقاً موجودٌ!»، مع ذلك، هم في الحقيقة أقل اهتماماً بهذ الفن العظيم الموجود مسبقاً، مثلما هم أقل اهتماماً بذلك الفن الذي يظهر ــ حياتهم شاهدٌ على هذا. التاريخ التذكاري هو الزّيّ الذي تتنكر تحته كراهيّتهم لكل العظماء والأقوياء في عصرهم كإعجاب متخم بالعظماء والأقوياء من العصور الماضية، وهو الزّي الذي يقلبون فيه بخلسةٍ المعنى الحقيقي لوِجهة النظر التذكارية عن التاريخ إلى نقيضه: إنهم يتصرفون كما لو كان شعارهم «دَعِ الموتى يَدفنوا الأحياء».

كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة من التاريخ صالح فقط في تربة واحدة ومناخ محدد، وله فقط: وفي أي ظرف آخر فإنه ينمو إلى أكثر الأعشاب إبادةً. إذا كان الإنسانُ الذي يريد أن يخلق شيئاً عظيماً محتاجاً إلى الماضي على الإطلاق، فإنه يستحوذ عليه بواسطة التاريخ التذكاري، ومن ناحية أخرى فإن أولئك الذين يرغبون في البقاء في العادة والقديم يدعمون الماضي كطريقة المؤرخين الأثريين (القدماء)، وفقط أولئك الذين يُعَرَّضون للاضطهاد بسبب محنة الحاضر، والذين يريدون التخلص من هذا العبء بأيّ ثمن يشعرون بالحاجة إلى تاريخ نَقْدِي، أي تاريخ يُقَاضِي ويُدِين. ينبع الكثير من الأذى من خلال زرع هذه النباتات دون تفكير: الناقد بلا بلاء، والأثري (antiquary) بلا تقوى، والخبير بالعَظَمَة غير القادر على خلق شيء عظيم ــ هم فحسب مثل هذه النباتات، المنفصلة عن التربة الطبيعية التي تُغَذّيها، وقد تَعَفّنت وظهرت كأعشاب ضارة.

(14) المتعلق بالآثار.

(15) ترجمة لـ Monogram، والتي تعني الطُرّة، أو الختم، أو التوقيع، أو العلامة التي ترمز إلى شخص ما وتتألف من أحرف اسمه الأولى مرقومة على نحو متشابك.

الفصل 7

ـ 3 ـ

ثانياً، يتعلق التاريخ بالشخص الذي يحفظ ويُبَجّل ـــ بمن ينظر إلى الوراء بحُب وولاء إلى حيث الأصول التي من خلالها أصبح ما هو عليه، وإن جاز التعبير يقدّم الشكر بهذه التقوى على وجوده. ويسعى من خلال العناية بكل ما هو قائم منذ العصور القديمة إلى الحفاظ لِأولئك الذين سيظهرون إلى الوجود بعده على الظروف التي نشأ هو نفسه في ظلها ـــ وبذلك يخدم الحياة. بالنسبة إلى مثل هذه الروح، فإن امتلاك ممتلكاتِ الأجداد المنزلية يأخذ معنًى مختلفاً، إذ بعيداً عن كون هذه الروح هي التي تمتلك هذه الأشياء، فإنها مُمْتَلكة من قبلها. تكتسب الأشياء الصغيرة، والمحدودة، والمتعفنة، والعتيقة كرامتها وقداستها عندما تسكن روح الإنسان الأثري المُبَجِّلة والحافظة وتجعل من نفسها عشاً مريحاً. يصبح تاريخ مدينته تاريخَه الخاص: إنه يفهم جدارها، وبوابتها الشاهقة، ومراسيمها وأعيادها الشعبية كيوميات مصورة لشبابه، ويعيد اكتشاف نفسه في كلّ هذا، وقوته، ويقظته، وفرحه، وأحكامه، وحماقته، ورذائله. يقول لنفسه: «كان ممكناً العيش هنا، لأنه من الممكن العيش هنا، وسيكون ممكناً في المستقبل العيش هنا، لأننا أقوياء ولا يمكن تحطيمنا بين عشية وضحاها». وبهذه الـ«نحن» فإنه ينظر إلى أبعد من وجوده الفردي المؤقت ويشعر أن نفسه هي روح منزله، ونسبه، ومدينته. بل إنه أحياناً يحيّي روحَ شعبه كأنها روحه عبر مسافة قرون قاتمة ومضطربة. إن مواهبه وفضائله تكمن في القدرة على التعاطف مع الأشياء والتكهن بأهميتها الكبرى، وتعقّب الآثار التي تكاد تُمحَى، وقراءة الماضي بشكل صحيح غريزياً وهو الذي غالباً ما يُكتَب بشكل متكرر، وفهم طرسه(16) بسرعة. وقف غوته، بهذه المواهب والفضائل، أمام عمل إروين فون شتاينباخ البارز، فتمزقت

الغيوم التاريخية التي غطت الزمن بينهما في عاصفة مشاعره: لقد اكتشف هذا العمل الألماني لأول مرة، «الذي يمارس أثره من روح ألمانية قوية وصلبة». كان هو الطريق نفسه الذي سلكه الإيطاليون في عصر النهضة، الروح التي أعادت إيقاظ عبقرية إيطاليا القديمة في شعرائهم على «رنين جديد رائع للأوتار البدائية»، كما قال ياكوب بوركهارت. لكن هذا الإحساس التاريخي بالتبجيل الأثري (القديم) له أعلى قيمة عندما يضفي شعوراً بسيطاً بالمتعة والرضى على الظروف البسيطة، القاسية، وحتى المؤلمة التي يعيش فيها إنسان أو شعب، كما يعترف نيبور بصراحة، على سبيل المثال، أنه عاش برضًى دون أن يُفَوّت الفن، في المراعي والمروج بين المزارعين الأحرار الذين لديهم تاريخ. كيف يمكن للتاريخ أن يخدم الحياة بشكلٍ أفضل من ربط أجيال أقل حظاً وشعوب بأوطانها وعاداتها الأصلية ومساعدتها على الاستقرار فيها، وصدها عن التشرد في الخارج بحثاً عن أشياءَ أفضل تتنافس على حيازتها في معركة؟ يبدو في بعض الأحيان أن ما يربط الأفراد، إن جاز التعبير، بهؤلاء الرفاق والأجواء المحيطة، وبهذه العادات المرهقة، بهذه الجبال العارية، هو عناد وحماقة ـ لكنها حماقة من النوع الأكثر صحة، وتفيد الكل: يدرك هذا أي شخص تَوَصّل إلى فهم العواقب المروّعة لمتعة المغامرة، خاصة عندما تستولي على مجموعة كاملة من الأمم، أو إذا راقب من كثبٍ ظروفَ شعب فقد ولاءه لماضيه، واستسلم إلى عالمية قَلِقة ورغبة لا تكف عن التجدد. الإحساس المضاد، الرضا الذي تشعر به الشجرة بجذورها، السعادة بمعرفة أن المرء لا يتشكل عشوائياً وعن طريق الصدفة، بل أنه ولد من الماضي، باعتباره وريثه وزهرته وثمرته، ومن ثَم فإن وجود المرء معذور ومبَرّر مسبقاً ـ هذا ما اعتدنا تسميته اليوم بالحساسية التاريخية الحقيقية.

من المؤكد الآن أن مثل هذه الحالة ليست بالتأكيد الحالة التي يكون فيها الإنسان أقْدَرَ على اختزال الماضي إلى معرفة خالصة، لذلك حتى هنا ندرك أيضاً، كما أدركنا سابقاً في حالة التاريخ التذكاري، أن الماضي نفسه يعاني ما

دام التاريخ يخدم الحياة وتحكمه بواعثُ الحياة. لاستخدام استعارة حرة نوعاً ما: تعي الشجرة جذورها بدرجة أكبر مما تستطيع رؤيتها. لكن هذا الشعور يُقَدّر حجمَها قياساً إلى حجم وقوة أغصانها المرئية، لكن حتى إذا كانت الشجرة مخطئة في هذا الصدد، فما مدى خطئها في الغابة المحيطة بها، التي تعرفها وتشعر بها أفضل إلى الحد الذي يَعُوق أو يعزز من نموّها ــ لكن لا شيء أكثر من ذلك! دائماً ما يكون للإحساس الأثري، الذي لإنسانٍ أو بلدة أو شعب بأسره، مجالُ رؤية محدودٌ للغاية، حتى إنه لا يلاحظ معظم الأشياء، والقليل الذي يراه يراه من قربٍ كبير ومعزول، وهو غير قادر على قياس أي شيء، ونتيجة لذلك يعتبر كل شيء على نفس القدر من الأهمية، ولذا يسبغ على كل شيء منفردٍ «أهمية كبيرة» جداً. لا يوجد معيارٌ للقيمة ولا إحساس بالتناسب مع أشياء الماضي الذي من شأنه أن ينصفها عندما يُنظر إليها فيما يتعلق ببعضها بعضاً، وبدلاً من ذلك يؤخذ مقياسها ونسبها دائماً في صلة مع الفرد الأثري أو الشعب الذي ينظر إليها.

هنا، دائماً ما يكون الخطر قريباً جداً: أخيراً، كلُّ ما هو قديم وماضٍ يدخل في مجال رؤية المرء هذا، يُنظر إليه ببساطة على أنه مُوَقّر، وكل ما يفشل في الترحيب بالقديم باحترام، بمعنًى آخر كل ما هو جديد وفي طور الظهور، يُقابَل بالعداء والرفض. وعلى هذا النحو حتى الإغريق تحمّلوا الأسلوب الكهنوتي {الهيراطيقي} بالإضافة إلى الحر والعظيم في فنونهم التشكيلية والگرافيكية. في الواقع، لم يتحملوا في وقت لاحق الأنوف المدببة والابتسامة الفاترة فحسب، بل جعلوا منها علامةً على الذوق الرفيع. عندما يتصلب إحساسُ الناس بهذه الطريقة، عندما يخدم التاريخ الحياة الماضية إلى الحد الذي لا يقوّض عنده الحياة الإضافية، بل وبشكل خاص الحياة العليا، عندما عاد الحس التاريخي لا يحفظها ولكنه يحنّطها، عندئذ تموت الشجرة تدريجياً بشكل غير طبيعي، تبدأ من تاجها وحتى جذورها ــ وفي النهاية تموت الجذور ذاتها بشكل عام أيضاً. يتدهور التاريخ الأثري نفسه منذ اللحظة التي عادت فيها حياة الحاضر الجديدة لا تلهمه وتنشطه. عند هذه النقطة تتلاشى التقوى،

وتستمر العادة العلمية دونها، وتدور برضًى ذاتي أناني حول محورها الخاص. ثُم نرى المشهد المثير للاشمئزاز لغضَبٍ أعمى للجمع، والاندفاع المضطرب لكل ما كان هناك. يغلّف الإنسانُ نفسَه برائحة العفونة. لقد نجح بطريقة أثرية قديمة في اختزال الدافع الأهم، والحاجة الأنبل، إلى هذا الفضول النهم ــ أو بشكل أدقّ، إلى كل رغبة شاملة لما هو قديم. غالباً ما ينحدر إلى درجة واطئة جداً بحيث إنه يكون في النهاية راضياً بالتهام أي طعام مها كان، بل يلتهم بحماسة غبارَ التفاصيل الببليوغرافية.

لكن حتى لو لم يحدث هذا الانحطاط، إذا لم يفقد التاريخ الأثري ذلك الأساس الذي يجب أن يتجذر فيه وحده، إن كان لخدمة رفاهية الحياة ــ تظل هناك مخاطرُ كافية، لو أنها أصبحت قوية للغاية وغَزَت الأنماط الأخرى للنظر إلى التاريخ. لأن التاريخ الأثري(antiquarian) يعرف فقط كيف يحافظ على الحياة، لا كيف يولّدها، لذلك يقلّل دائماً من قيمة ما سيكون لأنه لا يملك غريزة للتنبؤ به، كالتي يملكها، على سبيل المثال، التاريخ الآثاري (monumental). وعليه، فإن التاريخ الأثري يعيق أيّ عزم حازم لمحاولة شيء جديد، ويشلّ الشخص الفاعل، الذي بصفته شخصَ عمل يجب أن يسيء دائماً إلى بعض أعمال التقوى. الحقيقة أن شيئاً ما قد تقدم في العمر الآن يؤدي إلى المطالبة بجعله خالداً، لأنه إذا أضفنا كلّ التجارب ــ من عادة قديمة، ومعتقد ديني، وامتياز سياسي موروث ــ التي قد راكمها مثل هذا الأثر القديم خلال وجوده، حاسبين بذلك مقدار الإخلاص والتبجيل الذي شعر به الأفراد والأجيال تُجاهه، بالتالي يبدو من الافتراء أو حتى من غير المعقول استبدال مثل هذا الأثر القديم بجديد، ومعارضة مثل هذا التراكم العددي لأعمال الولاء والتبجيل برقم واحد لشي ما زال في طور التطور ومعاصراً.

يتضح مع هذا مدى ما يحتاج الإنسان في كثير من الأحيان، إلى جانب الأنماط التذكارية والأثرية لعرض الماضي، إلى نمط ثالث، وهو النقدي: وهذا مرة أخرى أيضاً في خدمة الحياة. يجب على الإنسان، إذا أراد أن يعيش، أن يمتلك

ويستخدم من وقت لآخر القوة لتفكيك وحلّ الماضي: وينجز هذا من خلال عرضه على المحكمة واستجوابه بشكل جاد وإدانته أخيرا: لكن كل ماضٍ يستحق أن يكون مداناً ــ لأن هذا ببساطة هو الحال مع الشوؤن البشرية: لقد لعب العنف والضعف البشري دائماً دوراً قوياً فيها. ليس العدل هو الذي يجلس في الحكم هنا، وأقل من ذلك أن تكون الرحمة هي التي تصدر الحكم: فالأحرى إنما هي الحياة والحياة وحدها، تلك القوة المظلمة، الدافعة التي تتوق إلى نفسها بنهم. حكمها غير رحيم وظالمٌ دائماً، لأنه لم يصدر عن ينبوع معرفة نقي، ولكنّ العقوبة ستكون في معظم الحالات هي نفسها حتى لو نطقت بها العدالةُ ذاتُها. «لأن كل ما ظهر إلى الوجود يستحق الهلاك. لذلك سيكون من الأفضل لو لم يكن هناك أي شيء موجود». يتطلب الأمر قدراً كبيراً من القوة لتكون قادراً على العيش ونسيان مدى كون العيش والظلم هما الشيء نفسه. حتى لوثر قد أعرب عن رأيه ذات مرة، أَنّ العالم قد نشأ فقط بسبب النسيان من جانب اللّه: لأنه لو كان اللّه قد فكر في «المدفعية الثقيلة»، لَمَا خلق العالم أبداً. ولكن في بعض الأحيان، تتطلب نفس هذه الحياة التي تقتضي النسيان تعطيلاً مؤقتاً لهذا النسيان، إذ يجب أن يتضح مدى ظُلم وجود أي شيء ــ على سبيل المثال: امتياز، طبقة، سلالة ــ وكم تستحق هذه الأشياء الهلاك. ثم يُنظر إلى ماضي المرء بشكل نقدي، فيتناول جذوره بالسكّين، ومن ثَم ينتهك بوحشية كلّ تقوى. وهي عملية خطرة دائماً، خاصة بالنسبة إلى الحياة نفسها: والناس والعصور التي تخدم الحياة بالحكم على الماضي وتدميره هي دائماً خطيرة وتُعَرّض للخطر البشرَ والعصور. فما دمنا نِتَاج أجيالٍ سابقة، فنحن أيضاً نتيجةٌ لانحرافاتهم وعواطفهم وأخطائهم، بل في الواقع نتيجة جرائمهم، فمن المستحيل أن نحرر أنفسنا تماماً من هذا القيد. إذا أَدَنّا هذه الانحرافات واعتبرنا أنفسنا متحررين منها، فإن هذا لا يُغَيّر من حقيقة أننا نشأنا فيها. في أفضل الأحوال نصل إلى مواجهة بين معرفتنا وطبيعتَنا الموروثة والمكتسبة من أسلافنا، وربما أيضاً إلى صراع من خلال انضباط جديد وصارم ضد إرثنا الفطري فنغرس في أنفسنا عادةً جديدة، وغريزة جديدة، وطبيعة ثانية، بحيث تتلاشى طبيعتنا الأولى. إنها محاولة لمنح

أنفسنا، إذا جاز التعبير، ماضٍ بَعْدِيّ يرغب المرء أن ينحدر منه، على عكس الذي ينشأ فيه: ــ وهي محاولة خطيرة دائماً، لأنه من الصعب جداً معرفة حدٍّ لإنكار الماضي، ولأن الطبيعة الثانية عادةً ما تكون أضعفَ من الأولى. كثيراً ما نتوقف عند ما هو خير دون فعله، لأننا نعرف أيضاً ما هو الأفضل دون أن نكون قادرين على القيام به. لكن هنا وهناك تحقق، مع ذلك، انتصارٌ، وبالنسبة إلى المنخرطين في هذا الصراع، بالنسبة إلى أولئك الذين يستخدمون التاريخ النقدي في خدمة الحياة، هناك عزاء رائع: وهو معرفة أن تلك الطبيعة الأولى كانت ذات مرة طبيعةً ثانية وأن كل طبيعة ثانية منتَصِرة ستصبح الأولى.

(16) طرس والجمع طروس، وطرس الكتاب، أي كتبه أو أعاد كتابته على ما هو ممحوّ، أي سوّده.

الفصل 8

ـ 4 ـ

هذه هي الخدمات التي يقدر التاريخ على تحقيقها للحياة: كلّ إنسان، وكلّ أمّة تحتاج، وفقاً لأهدافها وقدراتها واحتياجاتها، إلى نوع محدد من معرفة الماضي، أحياناً في شكل تاريخي تذكاري، وأحياناً في شكل تاريخي أثري قديم، وأحياناً أخرى في شكلٍ تاريخي نقدي، لكنها لا تطلبه باعتباره جماعة من المفكرين البَحْت الذين ينظرون إلى الحياة فقط، ومن أفراد متعطشين إلى المعرفة سترضيهم المعرفة وحدها، والذين سيكون تراكم المعرفة بالنسبة إليهم هو الهدف بحد ذاته، بل دائماً وحَسْبُ من أجل غايات الحياة، وبالتالي سيكون خاضعاً دائماً للسيطرة والتوجيه الأعلى لهذا الغرض أيضاً. أَنَّ هذه هي العلاقة الطبيعية بين عصر، وثقافة، وأمّة بتاريخها الخاص ــ إذ يثيرها التطلّع،(17) وتنظمها درجة حاجتها، ومحفوظة ضمن حدود قوتها التشكيلية المتأصلة ــ، وأَنَّ معرفة الماضي تكون في جميع الأوقات مرغوبةً فقط بقدر ما تخدم المستقبل والحاضر، وليس بقدر ما تُضعف الحاضر أو تجتثّ مستقبلاً مفعماً بالحياة: كل هذا بسيط، تماماً كما هي الحقيقة بسيطة، وتُقنع على الفور أي شخص لا يُصِر أولاً على تقديم البرهان التاريخي.

والآن دعونا نُلْقِ نظرةً سريعة على زمننا! نشعر بالرعب والارتداد، ونجفل: أين ذهب كلّ هذا الوضوح، كل طبيعيّة ونقاء هذه العلاقة بين الحياة والتاريخ؟ في أيّ تشوُّش مضطرب ومبالغ فيه تتضخم هذه المشكلة الآن أمام ناظرنا! أهو ذنبنا نحن الذين نراقبها، أم أن كوكبةَ الحياةِ والتاريخ تغيرت حقاً لأن نجماً عظيماً مُعادِياً قد دخل بينهما؟ دَعِ الآخرين يوضحون أننا نظرنا بشكل خاطئ: نعتزم أن نقول ما نعتقد أننا نراه. مثل هذا النجم الرائع واللامع قد دخل

بالفعل بينهما، وقد تغيرت الكوكبة حقاً ـ وذلك بالعلم، ومن خلال المطالبة بأن يكون التاريخ علماً. عادت لا تحكم الحياةُ وحدها الآن، وتمارس قيوداً على معرفة الماضي: بدلاً من ذلك، هُدِمت كلُّ علامات الحدود وكلّ ما كان ذا يومٍ ينهار الآن على الإنسان. وبالعودة إلى الماضي مع امتداد عملية الصيروة إلى ما لا نهاية، تغيرت جميع وجهات النظر. لم يشهد أي جيل من الأجيال الماضية مشهداً غير قابل للاستقصاء من النوع الذي ينظّمه الآن علم الصيرورة الكوني، عن طريق التاريخ، لكن من المؤكد أنه يقوم بتنظيم هذا المشهد بجرأة محفوفة بالمخاطر بشعاره: الحقيقة تدوم، الحياة تنتهي.(18)

دعونا الآن نتوصل إلى صورة عن العملية الروحية التي تحدث في روح الإنسان الحديث. تتدفق المعرفة التاريخية إليه باستمرار من المنابع التي لا تنضب، تتجمع عليه الحقائق الغريبة والمنفصلة، وتفتح ذاكرته كل أبوابها، ومع ذلك فهي غير مفتوحة بما يكفي، وتكافح الطبيعة قَدْر الإمكان لاستقبال هؤلاء الضيوف الغرباء، وترتيبهم وتكريمهم، لكنهم هم أيضاً في صراعٍ بعضهم مع بعض، ويبدو أن من الضروري التغلب عليهم وإخضاعهم، إذا كان المرء نفسه لا يريد أن يهلك في صراعهم. إنّ تَعَوُّد مثلِ هذه الأسرة المضطربة والعاصفة والمتضاربة يصبح تدريجياً طبيعة ثانية، على الرغم من أن هذه الطبيعة الثانية تكون بلا شك أضعف، وأكثر قلقاً، وغير صحية تماماً مقارنةً بالأولى. في نهاية المطاف، يحمل الإنسان الحديث معه كميةً هائلة من أحجارٍ معرفة غير قابلة للهضم، وتُحدث بعض الأحيان دمدمةً، كما في الحكاية الخيالية، داخل بطنه. وتكشف هذه الدمدمة عن أكثر السمات غرابة لهذا الإنسان الحديث: التناقض الغريب بين باطنٍ لا يتوافق مع خارجٍ، وخارجٍ لا يتوافق مع أي باطن ـ وهو نقيض غير معروف للشعوب القديمة. عادة لا تكون المعرفة، التي تُستَهلَك بإفراط دون اشتهائها، وفي الواقع حتى على عكس حاجة المرء، فعالةً الآن كعاملٍ لتغيير العالم الخارجي، ولكنها تظل مختفية داخل عالم باطني فوضوي يصفه الإنسان الحديث بفخرٍ غريب بأنه «داخلي» خاص به. ثم يقول هذا الإنسان إن لديه المحتوى لكنه يفتقر إلى الشكل، غير أن هذا التناقض غير

مناسب تماماً بالنسبة إلى الكائنات الحيّة. لذلك، فإن تعليمنا الحديث ليس تعليماً حياً، لأنه لا يمكن فهمه على الإطلاق دون هذا التناقض، أي إنه ليس تعليماً حقيقياً على الإطلاق، بل هو مجرد نوعٍ من المعرفة عن الثقافة: إنه يملك فكرةً عن الثقافة وشعوراً تجاهها، ولكن لا يبرز منها أي إنجاز تعليمي حقيقي. من ناحية أخرى، ما هو دافع حقيقي، ما هو مرئي كعمل، لا يعني في أكثر الأحيان أكثر من اتفاقية لا أُبَالية أو تقليد مثير للشفقة أو حتى رسم كاريكاتوري فظ. ثم يستقر الإحساس في الداخل مثل ثعبان التهم أرانبَ كاملة، ثم يستلقي الآن بسلام في الشمس ويتجنب كلّ حركة غير ضرورية. إن العملية الداخلية الآن، هي المسألة الوحيدة المهمة «للتعليم».

كلّ مَارّ لديه أمنية واحدة: أن لا يموت مثل هذا التعليم من عسر استيعابه. تخيل يونانياً يراقب، على سبيل المثال، مثل هذا التعليم: فسيدرك أنه يبدو أن الأشخاص الحديثين «المتعلّمين» و«المتعلمين بشكل تاريخي» ينتمون بعضهم إلى بعض، كما لو كانوا واحداً، ويختلفون في عدد الكلمات. إذا قال الآن: إنه يمكن للإنسان أن يكون متعلماً جداً ولكنه في نفس الوقت غير متعلم تاريخياً إطلاقاً، فسنعتقد أننا لم نسمعه بشكل صحيح وسنهزّ رؤوسنا. احتفظ أولئك الأشخاص المشهورون في الماضي غير البعيد ــ أنا أتحدث، بالطبع، عن الإغريق ــ بإصرار على حساسية غير تاريخية طوال فترة قوتهم العظمى، إذا كان على إنسان معاصر أن يعود إلى ذلك العالم بطريقة سحرية، فمن المفترض أنه سيجد الإغريق «غير متعلمين» للغاية، وهذا من شأنه، بالطبع، أن يُعَرِّض سر التعليم الحديث المخفي بدقة للسخرية العامة: لأننا نحن المعاصرين ليس لدينا ما استخلصناه من أنفسنا على الإطلاق، ولم نصبح جديرين بالاهتمام إلا بتغذية أنفسنا وحَشْوها بأزمنة غريبة، وعادات، وفنون، وفلسفات، وأديان، ومعرفة، أيْ أصبحنا موسوعاتٍ متنقلة، كما قد يدعونا يونانيٌّ قديم انتقل إلى عصرنا. ومع ذلك، تكمن القيمة في الموسوعات بما تتضمنه، في المحتوى، وليس في ما يكون في الخارج، أي التجليد والغلاف. وهكذا، فالتعليم الحديث بأكمله داخليٌّ بشكل أساسي: وعلى الغلاف طبعَ

مُجَلّدُ الكتابِ شيئاً مؤثّراً: «كُتَيّب التربية الداخلية للبرابرة الخارجيين». يجعل هذا التناقض الداخلي والخارجي، في الواقع، المظهرَ الخارجي أكثر بربرية مما سيكون عليه الحال لو أن شعباً بدائياً قد تطور من نفسه وفقاً لاحتياجاته الفظة. فما هي الوسائل المتاحة للطبيعة للتغلب على ما يضغط عليها بإفراط؟ وسيلة واحدة لقَبُوله بأسرع ما يمكن والتخلص منه وطرده. من هنا تأتي عادةُ عدم أخذ الأشياء الحقيقية على محمل الجد، ومن هنا تنشأ «الشخصية الضعيفة» التي يترك عليها الواقعيُّ انطباعاً طفيفاً. نصبح أهمَلَ وأكثر تراخياً عندما يتعلق الأمر بالمظهر الخارجي، ونوسّع الفجوة غير المستقرة بين المحتوى والشكل إلى درجة عدم الإحساس الكامل بالبربرية ـ وذلك إذا نُشِّطَت الذاكرة مجدَّداً فقط، إذا كانت الأشياء الجديدة التي تستحق المعرفة تتدفق ويمكن وضعها بدقة في صناديق الذاكرة. إن ثقافة الشعب كنقيض لتلك البربرية كانت تُعَرَّف مرةً، وبرأيي بحقّ، على أنها وحدة الأسلوب الفني التي تتجلى في كل التعابير عن الذات الحيوية للشعب. ينبغي أن لا يساء فهم هذا التعريف بالإشارة إلى أنه مجرد تناقض بين البربرية والأسلوب الجميل، إذ ما عَنَيته هو أن شعباً ما تُنسب إليه ثقافة يجب أن يكون في الواقع وَحدةً حيّة واحدة، وألا يُفصل بشكل بائس إلى محتوًى وشكلٍ داخلي وخارجي. مَن يريد أن يسعى ويعزز ثقافة شعب ما عليه أن يسعى ويعزز هذه الوحدة العليا ويشارك في تدمير التعليم الحديث المزيف من أجل تعليم حقيقي. يجب أن يجرؤ على التأمل في كيفية استعادة صحة الناس التي قُوِّضَت بدراسة التاريخ، وكيف يمكنه إعادة اكتشاف غرائزِها، ومعها صدقِها.

قد أتحدث بشكل مباشر عن أنفسنا، نحن الألمان في يومنا هذا، الذين تضرروا أكثر من الأمم الأخرى من ضعف الشخصية هذا، والتناقض بين الشكل والمضمون. يعتبر الشكل بالنسبة إلينا بمثابة عُرف، كرداءٍ وقناع، وبالتالي، إن لم يكن مكروهاً تماماً، فهو على أي حال ليس محبوباً. سيكون من الأصح أن نقول إن لدينا خوفاً غير عاديٍّ من الكلمة «عُرف» ومن الشيء دون شيء. كان هذا هو الخوف الذي دفع الألماني إلى هجر المدرسة

الفرنسية: أراد أن يصبح أكثر طبيعية، وبالتالي أكثر ألمانية. ومع ذلك، يبدو أنه أخطأ في تقدير هذه الـ«بالتالي»: بعد الهروب من مدرسة العُرف، سَمَح لنفسه أن يبدأ العمل بأي طريقةٍ كانَ خيالُه يقترحَها له، ثم قلّد بشكل أساسي أكثر ما كان لديه سابقاً بطريقة متخلفة ومتعسفة ونصف منتبهة، وبجهد مع بعض النجاح. لذلك، فإننا نعيش حتى اليوم، مقارنةً بالعصور الماضية، في نسخة غير صحيحة ومتخلّفة من العُرف الفرنسي: كما يشير أسلوبنا في المشي والوقوف والمحادثة، وارتداء الملابس والسكن. كنا نظنّ أننا كنا نتراجع إلى ما كان طبيعياً، لكن ما كنا نفعله حقاً هو السماح لأنفسنا بالذهاب واختيار السهولة والراحة وبأقل درجة ممكنة من الانضباط الذاتي. قم بجولة في مدينة ألمانية ــ مقارنة بالصفات الوطنية المميزة المعروضة في المدن الأجنبية، ستجد أن كل الأعراف هنا هي أعراف سلبية، كل شيء عديم اللون، مهترئ، منسوخ بشكل سيئ، مهمل، كل واحد يفعل ما يحلو له غير أن ما يحبه ليس قوياً أبداً ولا مدروساً جيداً، سوى أنه يتبع القواعد الموضوعة، أولاً، بسرعة شاملة، وثم بالإدمان العام على الراحة والاطمئنان. يعتبرالألماني على الفور قطعة الملابس التي لا يتطلب استحداثها أي ذكاء ولا يكلف تصميمها أي وقت ــ وبعبارة أخرى، أيّ لباس مستعار من الخارج وقُلّد دون عناية ــ مساهمةً في اللباس الوطني الألماني. يرفض الألمان بشكل قاطع الإحساس بالشكل ــ لأننا نملك الإحساس بالمحتوى: لأنهم، على الرغم من كل شيء، اشتهروا بداخلهم العميق.

لكن هذا الداخل يحمل في طياته أيضاً خطراً مشهوداً: قد يتبخر المحتوى ذاته من الخارج، الذي يُفترض أنه لا يمكن رؤيته من الخارج، ومع ذلك، لن يكون وجوده السابق ولا اختفاؤه واضحاً على الإطلاق. ولكن مهما يكن الشعب الألماني بعيداً عن هذا الخطر كما نتخيل، سيظل الأجنبي معذوراً إلى حد ما في تأكيد أن داخلنا ضعيفٌ للغاية وغير منظم لإحداث تأثير خارجي ولمنح نفسه شكلاً. يمكن أن تكون دواخلُ الألمان مقبولةً إلى درجة اسثنائية: جادة، وقوية، وعميقة، وربما أثرى من دواخلِ دُولٍ أخرى، لكنها تظل ضعيفة ككل،

لأن كل هذه الخيوط الجميلة لا تلتحم معاً في عقدة قوية: ولذا إن الفعل المرئي ليس فعلاً وإعلاناً ذاتياً لكليّة هذا الباطن، ولكن فقط محاولة ضعيفة أو فجّة من جانب واحد أو آخر من هذه الخيوط لتتموضع بكونها الكُلّ. لهذا السبب لا يمكن الحكم على الألماني من خلال أفعاله، ولهذا السبب يظل الألماني مختبئاً تماماً كفردٍ حتى بعد أن قام بعمله. وكما هو معروف جيداً، لا بد من تقييمه حسب أفكاره ومشاعره، وهذه تظهر في هذه الأيام في كتبه. لو لم تكن هذه الكتب قد أثارت شكوكاً الآن أكثر من أي وقتٍ مضى حول ما إذا كان هذا الداخل المفضوح ما يزال موجوداً بالفعل في معبده الصغير الذي يتعذر الوصول إليه. سيكون من المروع التفكير أنه قد يختفي ذا يوم تاركاً ذلك الخارجي فقط، ذلك المظهر الخارجي الأخرق بغطرسة والرث بتواضع: سيكون مرعباً تقريباً كما لو كان ذلك الداخل ما يزال يجلس في المعبد، دون أن نكن قادرين على رؤيته، وكما لو كان أُخفِيَ وصُبِغ وكُوِّنَ ليكون مُمَثِّلةً، إن لم يكن شيئاً أسوأ. هذا، على أي حال، هو ما جمعه جريلبرزر(19) الذي كان يقف جانباً ويراقب بهدوء من تجربته المسرحية. يقول: «إننا نشعر بالتجريد، وبالكاد نعرف بعد الآن كيف يعبّر معاصِرُونا عن أنفسهم، إننا ندعهم يعملون بطرائقَ عادت مشاعر هذه الأيام لا تجعهلم يؤدونها. لقد أفسدنا شكسبير جميعاً نحن الحداثيين».

هذه حالة فردية، ربما كنتُ على عجلة للغاية لتعميمها: ولكن كم سيكون فظيعاً إن كان مثل هذا التعيم مبرراً، إنْ لُفِت انتباه المراقِب للحالات الفردية بشكل متكرر، وكم ستبدو الجملة الأولى من عبارة جريلبرزر بائسة: نحن الألمان نشعر بالتجريدات، ولقد أفسدنا التاريخُ جميعاً ــ وهو إعلان من شأنه أن يحطم كل أمل من جذوره في ثقافة وطنية مستقبلية: لأن أملاً من هذا القبيل ينبع من الإيمان بأصالة وفورية الشعور الألماني، من الإيمان بطويّة سليمة وكاملة. ما الذي ما يزال بإمكاننا أن نأمله، ما الذي ما يزال بإمكاننا أن نؤمن به إذا كان مصدرُ الأمل والإيمان غائماً، إذا تعلّم الجوّاني أن يقفز ويرقص ويصبغ نفسه، أن يعبّر عن نفسه في تجريداتٍ ويفقد نفسه تدريجياً

في حسابات. وكيف يفترض أن تكون الروح الإنتاجية العظيمة قادرةً على تحمّل العيش بين شعب عاد ليس متؤكداً من داخله الموحّد والذي ينقسم منشطراً إلى أشخاص متعلّمين ذوي باطن غير مثقّف(20) وفاسد، وأشخاص غير متعلّمين بباطن لا يمكن الوصول إليه! كيف يُفتَرض لهذه الروح أن تتحمل إذا كانت وحدة الإحساس بين الشعب قد فُقدت، وإذا كانت تعرف، علاوة على ذلك، أن هذا الإحساس مزيفٌ ومنمق بين ذلك الجزء من الشعب بالذات الذي يُسَمِّي نفسه الجزء المثقف ويَدّعي امتلاك الضمير الفني الوطني؟ حتى لو نما ذوقُ فردٍ بشكل أذكى وأكثر تسامحاً هنا وهناك، فتلك ليست ميزة له: إن الأمر يعذّبه أنه مجبرٌ على أن يوجّه كلامه إلى طائفة، إن جاز التعبير، وأن شعبه ككل عاد لا يكون في حاجة إليه. ربما سيفضّل الآن دفنَ كنزه لأنه يشعر بكونه رُعِيَ بشكل مُدَّعٍ من قِبَل طائفة، في حين أن قلبه مملوء بالرحمة للجميع. وما عادت غريزةُ قومه لمقابلته، وليس مجدياً له أن يمدّ يديه إليهم في توق. ما الذي يمكنه أن يفعله سوى تحويل كراهيته الملهَمة ضد ذلك القيد، وضد الحواجز التي أُقِيمت في ما يسمى بثقافة أمته، بحيث يتمكن، كقاضٍ على الأقل، من إدانة ما يعتبره، ككائن حيٍّ وفردٍ منتج للحياة، دماراً وانحطاطاً. لذا يستبدل النظرة العميقة في مصيره بالفرح الإلهي للشخص المفيد والمبدع، وينهي أيامه كإنسانِ معرفةٍ أعزلَ وحكيمٍ مفرطِ الشبع. هذا هو المشهد الأكثر إيلاماً: مَن ينظر إليه سيتعرّف فيه إكراهاً مقدساً: سيقول لنفسه: «يجب عمل شيء هنا، يجب استعادة الوَحدة العليا في طبيعة وروح الشعب، وينبغي أن يختفي هذا الانقسامُ بين الداخل والخارج تحت ضربات مطرقةِ الضرورة». لكن أيّ أسلحة يمكنه استخدامها؟ كل ما تبقى له هو معرفته العميقة، وهو بنشرها وبَذْرها بيدين مملوءتين يأمل أن يزرع حاجةً: وسيظهر عمل قوي من هذه الحاجة القوية في يوم من الأيام. وكي لا أترك أي شك إزاء المصدر الذي أستقي منه مثالِيَ عن هذه الضرورة، هذه الحاجة، هذه المعرفة، دعني أقُلْ صراحةً: إن الوحدة الألمانية بمعناها الأسمى هي التي نطمح إليها، والتي نطمح إليها بقوة أكبر مما نفعله بإزاء

التوحيد السياسي: وَحدة الروح والحياة الألمانية بعد تحطيم التضاد بين الشكل والمضمون، والداخل والعُرف.

(17) هنا ترجمة لـ Hunger، ويمكن ترجمتها أيضاً إلى التحرق، الشوق، الحنين، الاشتهاء.

(18) في الأصل باللاتينية: fiat veritas، pereat vita.

(19) هو فرانز جريلبارزر Franz Grillparzer، الذي عاش في الفترة (1791 ـ 1872). وهو أديب وكاتب مسرحي نمساوي.

(20) يمكن ترجمتها أيضاً إلى غير متحضر.

الفصل 9

ـ 5 ـ

يبدو لي أن التشبع المفرط لعصر من العصور بالتاريخ يكون معادياً وخطيراً للحياة من خمس نواحٍ: مثل هذا الإفراط يخلق تبايناً بين الباطن والظاهر الذي ناقشناه سابقاً، وبالتالي يُضعف الشخصية ويقود إلى عصر يتخيل أنه يمتلك أندر فضيلة، أي العدالة، بدرجة أكبر من أيّ عصر آخر. إنه يقوّض غرائز الشعب، ويَعُوق الفرد عن بلوغ النضج بما لا يقلّ عن إعاقته للكل. إنه يزرع بذور الاعتقاد الخطير دائماً بشيخوخة البشرية، الاعتقاد بأن المرء متأخر ومقلِّد. يُلقي هذا الإفراط بأيّ عصرٍ في موقف خطير من السخرية الذاتية، ومن هذا حتى في سلوك خطير من النابية (cynicism). ومع ذلك، فإنه في نهاية المطاف ينضج أكثر وأكثر في اتجاه الممارسة الأنانية الماكرة، التي من خلالها تكون قواه مشلولة ومدَمَّرة في النهاية.

ولْنَعُدِ الآن إلى فرضيتنا الأولى: يعاني الإنسان الحديث من ضعف الشخصية. تماماً كما أصبح الروماني في العصر الإمبراطوري غير روماني بالنسبة إلى العالم الذي كان تحت أقدامه، وتماماً كما فقد نفسه في تدفق المؤثرات الأجنبية، وانحَطّ في خِضَم الكَرْنَفال العالمي للبضائع والفنون والعادات، لذلك يجب أن يحدث نفس الشي للإنسان الحديث الذي يحرص فنّانوه التاريخيون باستمرار على إعداد مهرجان عالمي له: لقد أصبح متفرجاً متجوّلاً يمتّع نفسه، وقد تحول إلى حالة لا تكاد حتى الحروب الكبرى والثورات العظيمة فيها أن تكون قادرة على تغيير أي شيء ولو للحظة. حتى إن الحرب لم تنتهِ قبل أن تتحول إلى مِئَة ألف صفحة مطبوعة، إذ قُدِّمَت بالفعل كأحدث الأطعمة الشهية لأذواق المتعطشين للتاريخ المنهكة. يبدو من المستحيل أن تُنْتَج نغمةٌ

أثرى وأكمل من خلال عزف الأوتار الأقوى: إن نغماتها تتلاشى حالاً، وفي اللحظة التالية تُحوّل بالفعل إلى صدًى تاريخي باهت. ولنعبّر بعبارات أخلاقية: أنت عُدْتَ غير قادرٍ على التمسك بالسامي، أفعالك قرقعات مفاجئة، وليست رعداً. حتى ولو أنجزت أعظم الأشياء وأروعها، ما يزال يتعين عليك الهبوط إلى أوركوس(21) دون صوتٍ أو غناء. لأن الفن يهرب على الفور عندما تغطّي أفعالَك بسقف الخيمة التاريخي. مَن يريد أن يفهم، ويدرك، ويقيّم في لحظةٍ، حيث كان من المفترض أن يكون في رهبة طويلة، كما بإزاء سُمُوّ لا يمكن فهمه، يمكن أن يُطلَق عليه عاقلاً، لكن فقط بالمعنى الذي يتحدث به شِلِر عن عقلانية الناس العقلانيين: فهو لا يرى بعض الأشياء التي يراها حتى الطفل، ولا يسمع بعض الأشياء التي يمكن للطفل أن يسمعها، وهذه الأشياء هي على وجه التحديد أهم الأشياء: لأنه لا يفهمها، إذ فهمه أكثر صبيانية من الطفل وأبسط من البساطة ــ وهذا على الرغم من التجاعيد الذكية العديدة في ملامحه الشبيهة بالرَّقِّ وبراعة أصابعه في فكّ ما هو متشابك. ما يعنيه هذا: أنه فَقَد غريزته ودمرها، وعاد لا يكون بإمكانه الآن الوثوق «بالحيوان الإلهي»، ولا بإمكانه أن يطلق العنان لنفسه عندما تهتز عقلانيته ويقوده طريقه عبر الصحارَى. وهكذا يصبح الفرد متردداً وغير متأكد ولا يجرؤ على الإيمان بنفسه: يغرق في أعماقه الداخلية وهو ما يعني في هذه الحالة لا شيء سوى الخليط المتراكم من المعرفة المكتسبة التي ليس لها أي تأثير خارجي، ومن التعليم الذي يفشل في أن يصبح حياةً. إذا ألقينا نظرةً على مظهرهم الخارجي، نلاحظ كيف أن طرد الغرائز عن طريق التاريخ قد حوّل البشر تقريباً إلى محض تجريدات وظِلَال: لا أحد يجرؤ على الظهور كما هو، لكنه يتخفّى كرجل مثقف، كباحث، كشاعر، كسياسي. إذا أخذنا هذه الأقنعة معتقدين أنها جادّة وليست مجرد جزء من مهزلة ــ لأنها جميعاً تؤثر في الجدية ــ نجد فجأةً أنفسنا لا نمسك بأيدينا شيئاً سوى خرقٍ وأسْمَالٍ ملونة. هذا هو السبب في أنه ينبغي أن لا ندع أنفسنا تُخدَع بعد الآن، والسبب في أنه يتوجب علينا أن نطلب منهم: «إما أن تخلعوا معاطفكم وإما تكونوا كما تَبْدُون!». عادة لا يتوجب على كل جدّيّ بطبيعته أن يصبح دون كيشوت: نظراً

إلى أن لديه أشياء أفضل ليفعلها بدلاً من التنازع مع مثل هذه الحقائق المحتملة. لكن يجب عليه في أي حال أن يلقي نظرة فاحصة، وفي كلّ مرة يكتشف قناعاً عليه أن يصرخ به: «توقّف! من هناك؟»، وينزع القناع عن وجهه. غريب! قد يحسب أحدٌ أن التاريخ شجّع قبل كل شيء الناسَ على أن يكونوا صادقين ــ حتى ولو كانوا مجرد حمقى صادقين. وكان هذا دائماً تأثير التاريخ، اليوم فحسب عاد الأمر ليس كذلك! يسود التعليم التاريخي والغطاء البرجوازي العام في نفس الوقت. في حين أنه لم يُتَحَدَّث عن «الشخصية الحرة» من قبلُ بهذه الطريقة المدوّية أبداً، فإننا لا نرى شخصياتٍ على الإطلاق، ناهيك بأن نرى شخصيات حرّة، بل مجرد كائنات بشرية كونية مقنّعة بفزع. انسحب الفرد إلى داخل نفسه: ولا نرى له أي أثر من الخارج، وهي حقيقة تدفعنا إلى الشّكّ بإمكان وجود أسباب دون نتائج. أو يجب أن يكون هناك جنسٌ من الخصيان لحراسة عالم الحريم التاريخي العظيم؟ الموضوعية الخالصة تظهر غالباً في أمثال هؤلاء الرجال. يبدو تقريباً كما لو أن المهمة هي حراسة التاريخ كي لا يخرج منه شيء سوى قصص التاريخ، ولكن بالتأكيد لا توجد حوادث! ــ هذا من شأنه أن يمنع الشخصيات من أن تكون «حرّة»، أي صادقة تجاه نفسها، وصادقة تجاه الآخرين، قولاً وفعلاً. سيُظهِر هذا الصدق فقط الضِّيقَ والبؤس الداخلي للإنسان الحديث، وعندها فقط يمكن للفن والدين، بوصفهما مساعدَيْن حقيقيين، أن يَحلّا محل ذلك التخّفي المفزع عبر العُرف والتّنَكّر، من أجل غرس ثقافة تستجيب للاحتياجات الحقيقية بشكلٍ مشتَرَك، ولا تعلّمنا فقط ــ كما هو الحال مع التعليم العام اليوم ــ أن نكذب على أنفسنا حول هذه الاحتياجات، وبالتالي تصبح كذبة متنقلة.

يجب تقليص الإلهة الصادقة العارية التي هي الفلسفة، أي الأصدق من بين كل التخصصات العلمية، في عصرٍ يعاني من التعليم العام، إلى ما هو غير طبيعي ومصطنع وحالٍ بلا قيمة في كل الأحوال! في عالم يتّسم بمثل هذا التوحيد الخارجي القسري، تبقى (الفلسفة) منولوجاً أكاديمياً لمُتَجوّل أعزلَ والغنيمة الاحتمالية للفرد، والسر الخفي، أو الثرثرة غير المؤذية للأكاديميين

المُسِنّين والأطفال. لا أحد يجرؤ على الوفاء بقانون الفلسفة بنفسه، ولا أحد يعيش فلسفياً، بهذا الولاء الرجولي البسيط الذي أجبرَ إنسانَ العصر القديم، إنْ أعلنَ مرةً ولاءَه للرواقية، أن يتصرف كرواقي أينما كان، ومهما فعل. كل فلسفة حديثة هي سياسية وحكومية، ومقيّدة بالحكومات والكنائس والأكاديميات والعادات والجُبن البشري في التظاهر الأكاديمي: فهي تكتفي بالتنهد «لو فقط» أو تعرف «في سالف الزمان». ليس للفلسفة في سياق التعليم التاريخي أي حقوق، إذا كانت تسعى إلى أن تكون أكثر من مجرد معرفة مقيّدة بذاتها دون تأثير. لو كان الإنسان المعاصر أشجع وأحزم فقط، لو لم يكن مخلوقاً ذاتياً حتى في عداواته، لكان قد أقصى الفلسفة، كما هي، واكتفى بإخفاء عريها بخجل. من المؤكد أننا نفكّر ونكتب وننشر ونتحدث وندرّس فلسفياً، كل شيء تقريباً مسموح به، ما دام يمضي الأمر إلى هذا الحد. لكن، في مجال العمل، في ما يسمى حياةً، يكون الأمر مختلفاً: هناك شيء واحد فقط مسموح به على الإطلاق وكل شيء آخر ممنوع: على هذا النحو يريد التعليم التاريخي أن يكون الأمر. عندئذ نسأل أنفسنا: أما زال هؤلاء بشراً، أم أنهم ربما مجرد آلات تفكر، وتكتب، وتتحدث؟

قال غوته ذات مرة عن شكسبير: «لا أحد يحتقر الزي الظاهري(22) أكثر منه، إذ كان يعرف الزي البشري الداخلي جيداً جداً، وهنا يتشابه الجميع. أُكِّدَ أنه وَصَف الرومان بشكل رائع، لكنني لا أعتقد الأمر كذلك، إذ إنهم ليسوا سوى إنجليز من لحم ودم، ومع ذلك فهم بالتأكيد بشر، بشر من الرأس إلى أخمص القدمين، وحتى توغا(23) الرومان تلائمهم جيداً». الآن، أسألك عَمّا إذا كان من الممكن على الإطلاق تقديم أدبائنا وقادتنا الشعبيين وموظفينا وسياسيينا المعاصرين اليوم على أنهم رومانيين. إن الأمر ببساطة لن يتحقق، لأنهم ليسوا بشراً، بل مجرد خلاصات من لحم ودم، وعلى هذا النحو تجريدات ملموسة، إن جاز التعبير. حتى وإن حدث أن تكون لديهم شخصية وطريقة خاصة بهم، فإنها مدفونة في أعماقهم لدرجة أنه لا يمكن أبداً أن تشقّ طريقها إلى ضوء النهار: لو كانوا بشراً على الإطلاق، فهم كذلك فقط بالنسبة

إلى من «يفحص أحشاءهم»، وهم شيء مختلف بالنسبة إلى أي شخص آخر: ليسوا بشراً، ليسوا آلهة، ولا حيوانات، بل نتاجات تعليمٍ متعلِّمة تاريخياً، تعليمٍ مفرط، إنهم صورة، شكلٌ دون محتوًى واضح، وللأسف شكلٌ سيئ، وعلاوة على ذلك مُوَحَّد. ولْيفهم القارئ الآن افتِرَاضِيَ ويتأمله: لا يمكن أن تتحمل التاريخ إلا الشخصيات القوية، إذ إنه يحطم الشخصيات الضعيفة تماماً. والسبب في ذلك هو أن التاريخ يُربك الأحاسيسَ والعاطفة حيثما لا تكون قوية بما يكفي لتأخذ نفْسها كمقياس للماضي. أولئك الذين عادوا لا يجرؤون على الثقة بأنفسهم، ولكن بدلاً من ذلك يتوجهون إلى التاريخ بشكل غريزي للحصول على المشورة ويسألونه: «كيف يجب أن أشعر في هذه الحالة؟»، يصبحون بالتدريج ممثِّلين بدافعٍ من الخوف ويلعبون دوراً ــ وحتى العديد من الأدوار عادةً، وهو ما يفسر لعبهم بشكل سيئ وسطحي. يختفي تدريجياً كلّ التطابق بين الإنسان ومجاله التاريخي تدريجياً، نرى تلاميذَ صغاراً طائشين يتعاملون مع الرومان كما لو كانوا أنداداً لهم: وهم يحفرون وينقِّبون في رفات الشعراء الإغريق كما لو كانوا هم أيضاً أجساداً corpora معروضة للتشريح، كما لو كانوا مجرد نفايات vilia، مثلما يمكن أن تكون الأعمال (24) corpora الادبية لهؤلاء التلاميذ الصغار. لنفترض أن هناك من يهتم بديمقريطس، دائماً ما يخطر ببالي السؤال: لماذا ليس هيرقليطس، أو فيلون، أو بيكون، أو ديكارت، أو أي شخص آخر، في ذلك الشأن؟ وبعد ذلك: لماذا على أي حال، فيلسوف؟ ولماذا لا يكون شاعراً أو خطيباً؟ و: لماذا يجب أن يكون إغريقياً؟ لماذا لا يكون إنكليزياً أو تركياً؟ أليس الماضي كبيراً بما فيه الكفاية لتجد شيئاً لا يجعلك تبدو متعسفاً بشكل مثير للسخرية؟ لكن، كما قلت، نحن نتعامل مع جنس من المخصيين، وبالنسبة إلى المخصي، لا فرق بين امرأة وأخرى، إذ إنها مجرد امرأة، امرأة في حد ذاتها، لا يمكن إلى الأبد الوصول إليها، وبالتالي لا فرق فيما تفعله، ما دام أن التاريخ نفسه يظل «موضوعياً» بدقة، ويُحافَظ عليه من قِبَل أولئك الذين لا يستطيعون أبداً صنعَ التاريخ بأنفسهم إلى الأبد. ولمّا كان الأنثوي الأبدي لن يرفعك أبداً إلى الأعلى، فإنك تسحبه إلى مستواك، ولمّا كنتَ محايداً، فأنت تعتبر التاريخ محايداً أيضاً،(25) ولكن حتى لا

يعتقد أحدٌ ما أنني أقارن التاريخ جدّياً بالأنثوية الأبدية، فاسمحوا لي أن أعلن بوضوح، على العكس من ذلك تماماً، أنني أعتبره ذكورية أبدية: ولكن بالنسبة إلى أولئك الذين «رُبّوا تاريخياً» بعمق، لا يمكن أن يكون هناك فرق كبير سواء كان هذا أو ذاك: لأنهم هم أنفسهم ليسوا ذكوراً ولا إناثاً، ولا حتى مُخَنّثين، بل دائماً خصيان وحسب، أو، إذا أردنا التحدث بشكل أكثر تهذيباً، إنهم موضوعيون خالدون.

بمجرد القضاء على الشخصيات بالطريقة التي وصفتها للتو واختزالها إلى لا ذاتية أبدية ــ أو كما يقولون: إلى «موضوعية»، فلا شيء يمكن أن يؤثر فيها بعد الآن، حتى لو حدث شيء عادل وصالح، كفعلٍ أو شعرٍ أو موسيقى: سيتجاوز في الحال أولئك الذين جُوِّفوا من خلال التعليم العَمَلَ وسيستفسرون عن تاريخ مؤلِّفه. إذا كان لدى المؤلف سلفاً عددٌ من الأعمال الأخرى، فيجب عليه أن يقدم على الفور تفسيراً لتطوره السابق والمسار المحتمل لتطوره المستقبلي، ويُقَارَن فوراً بآخرين، ويُحَلَّل فيما يتعلق باختياره لمادته ومعالجتها، ويُشَرَّح، ثم يُعاد تركيبه بذكاء مرة أخرى بطريقة جديدة، ويُنذَر ويُوَبَّخ بشكل عام. وحتى وإن حدث الشيء الأكثر إثارة للدهشة ــ فالغوغاء المحايدون تاريخياً يكونون دائماً في الوقت والمكان المحدد جاهزين للمسح والإشراف على المُؤلِّف من بعيد. على الفور يتردد الصدى: لكن دائماً كـ«نقد»، في حين لم يحلم النقاد قبل وقت قليل تماماً حتى بإمكانية وقوع الحدث. لا ينتج عن العمل أي تأثير في أي وقت، لكنه دائماً ما يؤدي فقط إلى ظهور «نقد»: والنقد بالمثل لا ينتج عنه أي تأثير، ولكن بدلاً من ذلك يخضع لنقد إضافي فقط. لقد توصلوا إلى اتفاق، وعلاوة على ذلك يجب اعتبار العديد من الانتقادات مؤثراً، والقلّة منها علامة فشل. لكن في الأساس، وعلى الرغم من هذا النوع من «التأثير»، يبقى كلُّ شيء كما كان: من المؤكد أن الناس يثرثرون بطريقة جديدة لبعض الوقت، ثم فيما بعد بطريقة جديدة أخرى، لكن في هذه الأثناء يستمرون في عمل ما كانوا يفعلونه دائماً. لن يسمح التعليم التاريخي لنُقّادنا حتى بإحداث تأثير بالمعنى

الحقيقي لهذه الكلمة، أيْ تأثيرٍ في الحياة والعمل: يمتصُّ ورقُهم النشَّافُ حتى كتابتهم الأكثر سواداً، وبضربات فرشاتهم الدهنية يُلَطّخون حتى الرَّسْمة الأجمل، ويُفتَرَض أن يُنظر إلى ضرباتهم هذه كتصحيحات. ثم هذه هي نهاية الأمر. لكن أقلامهم النقدية لا تتوقف أبداً عن التدفق، لأنهم فقدوا السيطرة عليها، وبدلاً من توجيهها فإنهم يسترشدون بها. إنما في هذا الإفراط في التدفق النقدي على وجه التحديد، وفي الافتقار إلى ضبط النفس، فيما يسميه الرومان بالعجز impotentia ـ يُكشَف عن ضعف الشخصية الحديثة.

(21) باللاتينية Orcus، لغوياً تعني غير مؤكد. كان أوركوس إلهاً للعالم السفلي، واختصّ بمعاقبة ناكثي القَسَم. وما يعنيه نيتشه هنا هو «الجحيم» أو «العالم السفلي».

(22) ترجمة لمفردة materielle الألمانية. وهنا إشارة إلى القيمة المادية للزي أو اللباس، وقد فَضّل المترجم في النص الإنگليزي أن يترجمها إلى خارجي بدلًا من مادي.

(23) ثوب روماني فضفاض.

(24) vilia corpora باللاتينية بمعنى مجموعة أو هيئات أو اجساد غير جديرة: vile bodies او كما يشير الباحث والمترجم بيتر بريوس إلى ان «هناك مسرحية عن corpora اللاتينية وتعني (جميع الجسم، والذي يمكن ان يعني إما جسدا، على سبيل المثال، ككائن بشري، أو مجموعة من الاعمال الأدبية) المغزى هو أن هؤلاء الاشخاص يقومون بتشريح الشعراء اليونانيين وكأنهم أجساد حقيرة ورخيصة، في حين أن أعمالهم الأدبية فقط هي حقيرة ورخيصة، أنظر؛ Peter Peruss، on Advantage and disadvantage of history for Life، Hackett Publishing، 1980، p. 18

(25) انظر السطور الاخيرة من فاوست II لغوته، Alludes to the closing lines of Goethe's Faust II: Das Ewig Weibliche/Zieht uns hinan ــ.. غالبا ما يلمح نيتشه إلى العبارة، ودائما بنبرة ساخرة ــ فكاهية: لقد فشل، على ما أعتقد، في اكتشاف أي معنى لها «ملاحظة مترجم النسخة الإنكليزية».

الفصل 10

ـ 6 ـ

لكن دعونا نترك هذا الضعف، ولننتقل بدلاً من ذلك إلى قوة الإنسان الحديث مع السؤال الذي يتبجّح به كثيراً حول ما إذا كان له الحق في أن يَدعو نفسه، على أساس «موضوعيته» التاريخية المعروفة، عادلاً، وعادلاً بدرجة أعلى من البشر في العصور الأخرى. أصحيح أن هذه الموضوعية تنبع من الحاجة المتزايدة والتوق إلى العدالة؟ أم أنها نتيجةٌ لأسباب مختلفة تماماً تجعل الأمر يبدو أن العدالة هي السبب الحقيقي لهذه النتيجة؟ أيمكن أن يؤدي هذا إلى تحيز ضار ــ بسبب الإفراط في الإطراء ــ في ما تعلّق بفضائل الإنسان الحديث؟ ــ اعتبر سقراطُ بلاءً يتاخِمُ الجنون أن يتخيل المرء نفسه يمتلك فضيلةً لا يمتلكها، وبالتأكيد فإن مثل هذا الوهم أخطر من الوهم المناقض بأن تكون ضحية عيب أو رذيلة. لأنه في الحالة الأخيرة من الممكن بأي حال من الأحوال أن يغدو المرء أفضل، لكن الوهم الأول يجعل الإنسان أو العصر أسوأ بمرور كل يوم ــ وهو ما يعني مزيداً من الظلم في هذه الحال.

حقاً، ما من أحد يستحق تكريمنا أكثر من أولئك الذين يمتلكون الدافع والقوة من أجل العدالة. لأن أسمى وأندر الفضائل متحدة ومخفية في العدالة تماماً مثل بحر لا يُسبر غوره، يستقبل ويبتلع كل الأنهار التي تصب فيه من جميع الجهات. عادت يدُ الإنسان العادل المخوّل بالحكم لا ترتجف عندما تمسك الميزان: مستقيماً تُجاه نفسه، يضيف وزناً إلى وزن، وعينه صافية إذ تنظر إلى الميزان يرتفع وينزل، ولا يكون صوته قاسياً ولا منكسراً عندما ينطق بالحكم. لو كان شيطانَ معرفةٍ بارداً لكَان نَضَحَ حوله جوّاً جليدياً من جلالةٍ فوق بشرية مرعبة يجب أن نخافها بدلاً من تبجيلها: لكنه إنسان، ويحاول

الارتقاء، مع ذلك، من الشك المتسامح إلى اليقين الصارم، من الرأفة المتسامحة إلى الأمر «يجب عليك»، من فضيلة الكرم النادرة إلى أندر الفضائل، أي وهي العدالة، بحيث إنه يشبه الآن شيطانَ المعرفة هذا، دون أن يكون أبداً أي شيء آخر غير إنسان مسكين. وعلاوة على ذلك، ينبغي له في كل لحظة التكفير من أجل إنسانيته، وهو يستهلك نفسه بشكل مأساوي في السعي وراء فضيلة مستحيلة ــ كل هذا يضعه على مرتفعات منعزلة باعتباره أكثر نماذج النوع الإنساني أحقّيةً بالاحترام، لأنه يسعى إلى الحقيقة، ليس كمعرفة باردة غير منطقية، بل الأحرى كقاضٍ يأمر ويعاقب. الحقيقة، ليس كملكية أنانية للفرد، بل الأحرى باعتبارها الشرعية المقدسة لتغيير حدود كل الممتلكات الأنانية. بكلمة: الحقيقة كـحكم أخير، وليس بأي حالٍ من الأحوال كالفريسة التي أسَرَها الصيادُ الفردُ بمتعة. بقدر ما يمتلك الإنسان الصادق إرادةً غير مشروطة ليكون عادلاً فقط، يوجد شيءٌ عظيم في ذلك السعي من أجل الحقيقة التي تُمَجَّد في كل مكان بلا تفكير: بينما في عيون أولئك الذين لا يتمتعون ببصر واضح مجموعة كاملة من أكثر الدوافع تنوعاً ــ كالفضول، والخوف من الملل، والاستياء، والغرور، والرغبة في التسلية، والتي لا علاقة لها على الإطلاق بالحقيقة ــ تُدمَج مع ذلك في السعي وراء الحقيقة الذي له جذوره في العدالة. من المؤكّد أن العالم يبدو مملوءاً بأولئك الذين «يخدمون الحقيقة»، ومع ذلك نادراً ما تكون فضيلة العدالة حاضرةً، ونادراً ما تُتَعَرَّف، وغالباً ما تكون مكروهةً بشكل مميت. في حين، على النقيض من ذلك، تُستَقبلُ مجموعةُ مُدَّعي الفضيلة في جميع الأوقات بشرفٍ وأبهة. الحقيقة أن قلّة من الناس يخدمون الحق بحق، لأن القليل منهم فقط يمتلك الإرادة النقية ليكونوا عادلين، ومن هؤلاء حتى عدد أقل ليكون قادراً على أن يكون عادلاً. لا يكفي بأي حال من الأحوال امتلاك إرادة العدالة فقط: وقد أصابت البشرية أفظع المآسي بسبب هذا الإلحاح على العدالة التي تفتقر إلى القدرة على الحكم، وهذا هو السبب في أن الرفاهية العامة لن تتطلب أكثر من زرع بذور سلطة الحكم على أوسع نطاق ممكن، حتى نتمكن دائماً من التمييز بين المتعصب والقاضي، وبين الرغبة العمياء في أن يكون قاضياً

والقوة الواعية التي تجعل المرء قادراً على الحُكم. ولكن أين يمكن أن نجد وسيلة لغرس القدرة على الحكم! ــ إذ كلما تحدثنا إلى الناس عن الحقيقة والعدالة، سوف يستمرون إلى الأبد في حيرتهم المترددة حول ما إذا كان الذي يخاطبهم متطرفاً أو قاضياً. يجب لهذا السبب أن نعذرهم إذا كانوا قد قدّموا دائماً ترحيباً وديّاً خالصاً لـ«خَدَمِ الحقيقة» أولئك الذين لا يمتلكون الإرادة ولا القدرة على أن يحكموا ويضعون لأنفسهم مهمة البحث عن معرفة «نقية وعقيمة» أو، بشكل أوضح، حقيقة تُعادل اللا شيء. هناك عديد من الحقائق غير المبالية، هناك مشاكل لا يكلّفنا حلها الصحيح أي جهد، ناهيك بالتضحية. في هذه المجال اللا مبالي والآمن، قد ينجح أحدٌ ما في أن يصبح شيطانَ معرفةٍ بارداً: لكن بالرغم من هذا، حتى لو حُوِّلَت مجموعاتٌ كاملة من العلماء والباحثين خاصة في الأوقات المناسبة إلى مثل هذه الشياطين ــ فما يزال من الممكن لسوء الحظ دائماً أن يعاني مثل هذا العصر من الافتقار إلى عدالة عظيمة وقوية ــ وباختصار، يعاني من الافتقار إلى أنبل مركَزٍ لِمَا يُسمى الدافع إلى الحقيقة.

تخيّل الآن الموهوب التاريخي في الحاضر: أهو أعدل إنسان في زمنه؟ صحيح، إنه ربى في نفسه حساسية رقيقة وحَسّاسة جداً إلى درجة أنه لا شيء بشرياً على الإطلاق غريبٌ عليه. يمكن أن يتردد صدى قيثارته في نغمات مماثلة لأصوات مختلِف العصور والأفراد: لقد أصبح سلبيةً ذات صدًى، ولصداها بدوره تأثير مدوٍّ في سلبيات أخرى من نفس النوع، حتى يُملَأ العصرُ في نهاية المطاف بتنويعاتٍ متتابعة صاخبة لمثل هذه الأصداء الرقيقة والقريبة. ومع ذلك، يبدو لي كما لو أن النغمات المتوافقة، إن صح التعبير، لتلك النوتة التاريخية الأصلية فقط هي المسموعة: عاد من غير الممكن التكهّن بقسوةِ وقوةِ الأصلِ في الاهتزازات الحادّة والرقيقة لأوتار القيثارة. علاوة على ذلك، عادةً ما تثير النغمة الأصلية الأولى أعمالاً وصعوباتٍ وأهوالاً، في حين أن نغمة القيثارة تهدّئنا وتجعلنا متمتعين رقيقين. يبدو الأمر كما لو أن السمفونية البطولية(26) جُهِّزَت لمزمارين لتسلية مدخّني الأفيون

الحالمين. من هذا المنطلق يمكننا أن نحكم الآن كيف تكون الأمور مع هؤلاء الموهوبين فيما يتعلق بأسمى ادعاء للإنسان الحديث، أي المطالبة بعدالة أعلى وأنقى. هذه الفضيلة لا ترضي أبداً، وليس لها دوافعُ مبهجة، فهي قاسية ومخيفة. بالمقارنة، ما أضعف الكرم حتى في سُلّم الفضائل، الكرم الذي هو صفة قلة من المؤرخين النادرين! لكن العديد منهم لا يصل إلا إلى التسامح، إلى قَبول صحة ما لا يمكن ببساطة إنكاره، إلى ترتيب وتجميل حسن النية والقياس في ظل الافتراض الذكي بأن عديمي الخبرة سيفسّرونها على أنها فضيلة العدالة، إذا كان الماضي على الإطلاق دون لهجاتٍ قاسية ودون التعبير عن الكراهية. لكن القوة المتفوقة فقط هي التي يمكنها الحكم، أما الضعف فيجب أن يكون متسامحاً، إذا كان لا يريد التظاهر بالقوة وجعل العدالة في كرسي القاضي ممثِّلة. الآن هناك أنواع مخيفة من المؤرخين: شخصيات كَفُؤة وصارمة وصادقة ــ لكنها ضيقة الأفق. إنهم يُظهِرون الإرادة إلى العدالة والشفقة القضائية، لكن كل أحكامهم خاطئة تقريباً لنفس السبب الذي يجعل أحكام هيئات المُحَلَّفين العادية خاطئة. كم هو بعيد احتمال أن تظهر موهبة تاريخية بهذا الثراء. وهذا صحيح حتى لو تجاهلنا الأنانيين والأنصار المقنعين الذين يرتدون سِحنة موضوعية على وجوههم وهم يلعبون لعبتهم الشريرة. إنه صحيح أيضاً إذا تجاهلنا بالمثل أولئك الأشخاص غير المتأمِّلين تماماً الذين يكتبون التاريخ في ظل اعتقاد ساذج أن عصرهم، وفقاً لجميع الآراء الشعبية، على حقّ وأنه بالضبط وجهات النظر الصحيحة والعادلة، وأن الكتابة وفقاً لعصرهم هذا ترقى تماماً إلى نَفْس أن يكون المرء عادلاً: هو اعتقاد يُفْلِح كلُّ دين فيه، ولا داعي إلى قول المزيد حوله حيثما يتعلق الأمر بالأديان. يسمّي هؤلاء المؤرخون الساذجون تقييم آراء وأفعال الماضي وفقاً لمعايير اللحظة الراهنة «موضوعيةً»: في هذه يكتشفون قاعدة كل الحقيقة، وهدفهم هو إجبار الماضي على التكيف مع طراز تفاهتهم الحديثة. وعلى النقيض من ذلك، فإنهم يسمّون كلّ شكل من أشكال تدوين التاريخ «ذاتيةً» ترفض قَبُول هذه الآراء الشعبية كقواعد.

وألَا يتسلل وهمٌ إلى معنى كلمةِ «موضوعية» حتى في تفسيرها الأسمى؟ تعني الكلمة، وفقاً لهذا التفسير، الحالة التي يلاحظ فيها المؤرخ جميع الدوافع والنتائج المترتبة على حَدَث بهذا النقاء بحيث لا يكون له أي تأثير في ذاتيته: وتشير ضمنياً إلى أن الظاهرة الجمالية، أي الانفصال عن المصلحة الشخصية التي يتأمل بها الرسام، في مشهد عاصف بين البرق والرعد أو في بحر هائج، صورتَه الداخلية، إنها تدل على الاستغراق الكامل في الأشياء: ومع ذلك، فمن الخرافة أن الصورة التي تثيرها هذه الأشياء في مثل هذا الإنسان المتناغم من الناحية الجمالية، تعيد إنتاج الجوهر الطبيعي لهذه الأشياء. أم أننا نفترض في مثل هذه اللحظات أن الأشياء تنقش، أو ترسم، أو تصوّر نفسها، إن جاز التعبير، من خلال نشاطها الخاص على وَسَطٍ سلبي بحت؟

ستكون هذه أسطورة، وأسطورة سيئة في ذلك: وعلاوة على ذلك، فقد ينسى المرء أن هذه اللحظة بالتحديد هي أقوى اللحظات وأكثرها عفوية وإبداعية في أعماق الفنان، لحظة تكوين من النوع الأسمى، قد تكون نتيجتها لوحة فنية حقيقية من الناحية الجمالية، ولكن لا يمكن أن تكون حقيقية من الناحية التاريخية. إن تَصَوُّر التاريخ بموضوعية بهذه الطريقة هو العمل الصامت للمسرحي، وهذا يعني التفكير في كل الأشياء على أنها مترابطة، ونسج الحوادث المنعزلة في كُلّيّة: مع الافتراض المسبّق دائماً أنه يجب إدراج خطة الوَحدة في الأشياء، إذا لم تكن متأصلة فيها بالفعل. وعلى هذا النحو يَلفّ الإنسانُ شَرَكَهُ على الماضي ويُخضعه، وبالتالي يعبّر عن حافزه الفني، ولكن، مع ذلك، ليس دافعه نحو الحقيقة أو العدالة. الموضوعية والعدالة لا علاقة لبعضهما بالأخرى. سيكون ممكناً تخيلُ كتابة تاريخٍ لا يحتوي على قطرة واحدة من الحقيقة التجريبية المشتركة، ومع ذلك يمكن أن تدّعي درجةً عالية من «الموضوعية». في الواقع، جَرُؤ جريلبرزر على أعلان: «ما التاريخ سوى الطريقة التي تدرك بها روح الإنسان حوادثَ منيعة عليه، إذ يربط بين أشياء يعلم اللّه وحده ما إذا كان ينتمي بعضها إلى الآخر، ويستبدل بشيءٍ مفهومٍ ما لا يمكن فهمه، ويضفي على مفاهيمه عن الغرض الخارجي كليّةً ربما يكون

لها هدف داخلي فقط، ويفترض الصدفة عندما يكون هناك ألف سبب صغير ذي تأثير. لكل إنسان في نفس الوقت ضرورته الخاصة، بحيث تجري ملايين الخطوط المستقيمة والمنحنية بالتوازي معاً، ويُقاطع بعضها بعضاً، ويدعم ويعيق أحدها الآخر، وتتقدم إلى الأمام وإلى الخلف، بحيث يتخذ كلٌّ منها للآخر طابعَ الصدفة، وبالتالي تجعل من المستحيل، بغض النظر عن تأثيرات حوادث الطبيعة، إثبات أي ضرورة مفهومة وسائدة في الحوادث كافة». لكن هذا النوع من الضرورة بالذات هو الذي من المفترض أن يظهر إلى النور كنتيجة لتلك النظرة «الموضوعية» للأشياء. هذا افتراض، عندما يصرح به مؤرخ على أنه عنصر إيمان، لا يمكن إلا أن يتخذ شكلاً مثيراً للفضول. شِلِر واضحٌ تماماً، بالطبع، بشأن الطبيعة الذاتية لهذا الافتراض، عندما يقول عن المؤرخ: «تبدأ ظاهرةٌ تلو الأخرى في الهروب من عالم الصدفة الأعمى والحرية الجامحة والاندماج كجزء مناسب تماماً في كلٍّ متناغم ــ والذي يوجد، بالطبع، في خياله فقط». لكن ما الذي يفترض بنا أن نستخلصه من هذا التأكيد التالي من قبل أحد الموهوبين التاريخيين المشهورين الذي يُقَدَّم بمثل هذا الاقتناع والذي يحوم بشكل مصطنع بين الحشو والهراء: «حقيقة الأمر هي أن جميع الأفعال البشرية تخضع للرفق، غالباً دون أن يلاحظها أحد ما، لكن مسار الحوادث قويٌّ ولا يقاوَم»؟ في افتراضٍ كهذا، لا ندرك قدراً من الحقيقة الغامضة مماثلاً لما ندرك من كذبٍ لا لبس فيه، كما هو الحال في تأكيد بستانيّ غوته: «يمكن أن تُقسَر الطبيعة، لكن لا يمكن إجبارها»، أو على لافتة جناح كرنڤال، كما روى سويفت(27): «هنا يمكنك رؤية أكبر فيل في العالم باستثناء نفسه». إذ أين، بالنتيجة، هو التعارض بين أفعال الإنسان ومسار الحوادث؟ يدهشني بشكل خاصّ أنّ أمثال هؤلاء المؤرخين، كالذي استشهدنا بجملة منه، عاد لا يكون لديهم شيء يعلّموننا إيّاه حالما يسقطون في التعميمات، وبالتالي يكشفون عن الضعف الذي يشعرون به في الغموض الذي يستخدمونه. التعميمات في العلوم الأخرى هي أهم شيء، بمقدار ما تحتوي على قوانين: ولكن إذا كان من المفترض اعتبار هذه الافتراضات، مثل تلك التي استُشهِد به سابقاً، قوانينَ، فعلينا أن نعترض على أنه في هذه الحال

يكون عمل المؤرخ مهدورا، لأن أي حقيقة تظل في مثل هذه الافتراضات، بعد إزالة الغموض المشار اليه، هي شيء مألوف تماما وحتى تافه؛ لأنه سيكون واضحاً للجميع من خلال كل نوع من الخبرة وحتى أصغرها. إن مضايقة أمم بأكملها وتكريس سنوات من العمل الشاق لهذا الجهد، هو مجرد تكديس معرفة على معرفة لفترة طويلة بعد أن أُثبِتَ القانون المزمع أن يُستخرج منها بشكل وافٍ: فائض لا معنى له من التجارب التي ابتليت بها في الواقع العلوم الطبيعية منذ زمن زولنر.(28) إذا كانت قيمة الدراما تكمن فقط في فكرتها النهائية والأساسية، فستكون الدراما نفسها هي أطول طريق ملتوٍ ومرهق للوصول إلى هذا الهدف، ولذا آمل ألا يجد التاريخ معناه في أفكار عامة، كنوع من الأزهار والفاكهة: لكن قيمته تكمن تحديداً في قيمة موضوع معروف جيداً، وربما عادي، لإعادة صياغةِ لحنٍ يومي ببراعة، وللارتقاء به إلى رمز شامل، وبالتالي تقديم فكرة عن عالم كامل من القوة والعمق والجمال في الثيمة الأصلية.

وفوق كل ذلك يتضمن هذا قوة فنية عظيمة، وإبداعاً يحلّق فوق الأشياء، وانغماساً محبّاً في البيانات التجريبية، وصياغة شعرية لأنواعٍ معينة ـ بالتأكيد الموضوعية مطلوبة لهذا أيضاً، ولكن كصفة إيجابية. لكن غالباً ما تكون الموضوعية مجرد عبارة. فبدلاً من الهدوء الداخلي اللامع والهدوء المعتم الظاهري غير المتأثر في عين الفنان هناك تظاهرٌ بالهدوء، تماماً كما يميل الافتقار إلى الشفقة والقوة الأخلاقية إلى التنكر في برودة شديدة من الملاحظة. في حالات معينة حتى تفاهة المشاعر ـ حكمة الإنسان العادي الذي يكون مله وحده هو المسؤول عن الانطباع بالبرود المتصنّع والعاطفي الذي يُحدثه ـ تَجْرؤ على كشف وجهها بحيث يمكن اعتبارها تلك الحالة الفنية التي يصبح فيها الموضوع صامتاً وغير ملحوظ تماماً. ما يُبحَث عنه بعد ذلك، هو ما لا يثير أي انفعال على الإطلاق، العبارة الأكثر جفافاً هي العبارة الصائبة تماماً. في الواقع، يذهب المرء أبعد من ذلك بافتراض أن أي شخص غير مهتم تماماً بلحظة معينة من الماضي هو الشخص الذي يجب دعوته لوصفها. هذه

هي الطريقة التي يرتبط بها علماء اللغة والإغريق غالباً بعضهم ببعض: مع عدم الاهتمام التام ــ وهذا ما يسمى بعد ذلك «موضوعية»! عندما يتعلق الأمر على وجه التحديد بتصويرِ أسمى الأشياء وأندرها، فعدم التدخل هذا المتعمّد والمتفاخر، هذا الدافع السطحي والمصطنع بجدية مثيرٌ للاشمئزاز تماماً ــ على الأقل عندما يدفعه غرورُ المؤرخ إلى افتراض هذه اللا مبالاة باعتبارها موضوعية. عند التعامل مع مثل هؤلاء المؤلفين، ننصح جيداً أن نبني حكمنا على مبدأ أن غرور كل إنسان يتناسب طردياً مع افتقاره إلى الذكاء. لا، على الأقل كن صريحاً! لا تبحث عن مظهر القوة الفنية التي يجب تسميتها حقاً الموضوعية، لا تبحث عن مظهر العدالة إذا لم تكن مكرَّساً لمهمة العادل المرعبة. كما لو كان من واجب كل عصر أن يكون عادلاً تُجاه كل ما كان موجوداً سابقاً! ليس من حق الأجيال والعصور أبداً الحكم على العصور والأجيال السابقة: تقع مثل هذه المهمة غير المريحة على عاتق الأفراد فقط، بل والأندر منهم بالفعل. من يجبركم على الحُكم؟(29) وبعد ذلك، اختَبِروا أنفسكم لترَوْا إنْ كان بإمكانكم أن تكونوا عادلين إذا أردتم ذلك! بصفتكم قضاةً، يجب أن تكونوا أعلى من الذي يجب أن تحكموا عليه، في حين أنكم تأتون بعده. يجب على الضيوف الذين يَصِلون متأخرين أن يرضوا بالمقاعد الأخيرة: وهل تريدون الحصول على المقعد الأول؟ حسنا، قوموا على الأقل بعملٍ سامٍ وعظيم، ربما بعد ذلك سيفسحون لكم المجال حقاً، حتى لو كنتم آخر من يصل.

يمكنكم تفسير الماضي فقط من أعلى قوة في الحاضر، وبأقوى جهدٍ لصفاتكم النبيلة سوف تخمّنون ما هو عظيم ومُسْتَحق للمعرفة والمحافظة عليه في الماضي. المِثْلُ بالمثل! وإلا ستسحبون الماضي إلى مستواكم. لا تثق بتدوين التاريخ الذي لا يصدر من عقل من أندر العقول، وستكون دائماً قادراً على قياس جَودة عقولهم عندما يجدون أن من الضروري ذكر حقيقة عامة أو إعادة صياغة حقيقة قديمة: يجب أن يتمتع المؤرخ الحقيقي بالقدرة على إعادة صياغة ما هو قديم إلى شيء لم يَسمع به أحدٌ من قبل، وإعلان

حقيقة عامة ببساطة وعمق لدرجة أن نتغاضى عن البساطة بسبب العمق وعن العمق بسبب البساطة. لا يمكن لأحد أن يكون مؤرخاً عظيماً وإنساناً فناناً ومتخلفاً في نفس الوقت: من ناحية أخرى، ينبغي لنا أن لا نقلل من شأن أولئك العمال الذين ينقلون العربات ويُراكِمون ويُغربلون لمجرد أنهم لن يصبحوا أبداً مؤرخين عظماء، وأقل من ذلك أن يخلط هؤلاء بهؤلاء، إذ بدلاً من ذلك ينبغي اعتبارهم متدرّبين وعمالاً يدويين ضروريين في خدمة سيدهم: كما تعوّد الفرنسيون، على سبيل المثال، التحدُّث، بسذاجةٍ أكبر من التي يمكن أن تكون لدى الألمان، عن «المؤرّخ دو إم. تيير».(30) يفترض أن يصبح هؤلاء العمال في نهاية المطاف علماء عظماء، ولكن مع كل ذلك لا يمكنهم أن يصبحوا سادة.(31) باحث عظيم وغبي عظيم ــ يكون الجمع بين هذين الاثنين أسهل تحت قبعة واحدة.

وهكذا: يكتب التاريخ ذوو الخبرة والمتفوقون. أي شخص لم يجرب أشياءَ أعظم وأسمى من غيره لن يكون قادراً على أي شيء عظيم وسامٍ من الماضي. إن قولَ الماضي هو دائماً وحي: وفقط بصفتك مهندسَ المستقبل وعلى دراية بالحاضر ستفهمه. نميل اليوم إلى شرح التأثير الواسع والعميق بشكل استثنائي لوحي دلفي مع الادعاء بأن كهنة دلفي لديهم معرفة دقيقة بالماضي، لقد حان الوقت لأن ندرك أن أولئك الذين يبنون المستقبل هم فقط من لهم الحق في الحكم على الماضي. من خلال التطلع إلى الأمام، وتحديد هدفٍ عظيم لنفسك، فإنك ستُخضِع في نفس الوقت ذلك الدافع التحليلي الأغزر الذي يختزل حالياً الحاضرَ في أرضٍ قاحلة ويجعل كلَّ نموٍّ هادئ ونضجٍ شبهَ مستحيل. ارسموا حولكم سُورَ أملٍ كبير وشامل، وكفاحٍ مفعم بالأمل. ابتكروا داخل أنفسكم صورةً يجب أن يتوافق معها المستقبل، وانسوا الاقتناع الخاطئ بأنكم من المقلِّدين. لديكم ما يكفي للتفكير والابتكار من خلال التأمل في تلك الحياة المستقبلية، لكن لا تطلبوا من التاريخ أن يوضح لكم «كيف؟»، و«بأي وسائل؟». إذا بدأتم، بدلاً من ذلك، في الانغماس في تاريخ البشر العظماء، فستستمدون منهم الوصية السامية: أن تصبحوا

ناضجين وأن تهربوا من تلك التنشئة المشلولة للعصر الحاضر التي ترى ميزتها في منع نموّكم لتحكمكم وتستغلكم في عدم نضجكم. وإذا كنتم تبحثون عن سِيَر ذاتية، فالرجاء تجاهل هذه التي تبدو عناوينها «السيد كذا وكذا وعصره»، واختاروا بدلاً من ذلك السير الذاتية التي تظهر صفحة عناوينها هكذا «مكافِحاً ضد عصره». أَرْضُوا أرواحكم بقراءة بلوتارخ وتجرّؤوا على الإيمان بأنفكسم من خلال الإيمان بأبطاله. بمائة من هؤلاء البشر المتعلّمين بطريقة غير حديثة، أي الذين نضجوا واعتادوا البطولة ــ يمكن إسكات كامل التعليم المخزي الصاخب لهذا العصر مرةً وإلى الأبد.

(26) إشارة إلى السمفونية الثالثة لبيتهوفن التي تُدعى بهذا الاسم.

(27) جوناثان سويفت (1667 ــ 1745) شاعر وكاتب بريطاني، يمتاز أدبه بالسخرية والتهكم.

(28) Karl Friedrich Zollner أو يوهان كارل فريدريش زولنر (1834 ــ 1882): عالم فيزياء وفلكي وأستاذ جامعي ألماني.

(29) هنا الحكم بمعنى المقاضاة.

(30) دو إم.تيير: رجل دولة ومؤرخ فرنسي عاش في الفترة (1797 ــ 1877).

(31) يمكن ترجمتها أيضاً إلى معلمين أو أساطين.

الفصل 11

ـ 7 ـ

عندما يحكم العقلُ(32) التاريخي دون قيود، ويكشف عن كلّ نتائجه، فإنه يقتلع المستقبل لأنه يدمر الأوهام ويسلب الأشياء الموجودة من أجوائها التي يمكن أن تعيش فيها وحدها. لذلك تكون العدالة التاريخية، حتى عندما تُمارس حقا وبأنقى النيّات، فضيلةً رهيبة، لأنها تقوّض الحياة وتخرّبها: حُكمُها إبادةٌ دائماً. إذا لم يكن هناك حافزٌ بَنَّاء نشطٌ وراء الحافز التاريخي، إذا لم تُدَمَّرِ الأشياء وتُزَل حتى يتسنى للمستقبل، الذي يعيش بالفعل في آمالنا، أن يبنِيَ منزلَه على أرض طُهِّرَت، وإذا كانَتِ العدالة وحدها هي التي تحكم ــ فإن غريزة الإبداع تضعُف وتُثَبَّط عزيمتُها. فَدِينٌ ما، على سبيل المثال، مُفتَرَضٌ منه أن يتحول في ظل حكم العدالة البحتة إلى معرفة تاريخية، ودينٌ مُفترضٌ منه أن يُفهم علمياً بنحو عميق، سيُباد في نهاية هذا المسار أيضاً. والسبب في ذلك أن التدقيق التاريخي يسلّط الضوءَ دائماً على الكثير من الأشياء الزائفة والفجّة واللا إنسانية والعبثية والعنيفة، بحيث تُدَمَّر بالضرورة حالةُ الوهم الورع الذي يمكن أن يعيش فيه وحده كلُّ ما يريد أن يعيش: إذ في الحب فقط، في ظل وهم الحب فقط، يمكنك أن تخلق، أي في إيمانٍ لا مشروطٍ بشيء كامل وعادل. كلّ إنسان عادَ لا يُجبَرُ على أن يحبّ بلا قيد أو شرط يكون قد بَتَر جذورَ قوّتِه: إذ لا يمكنه إلا أن يتلاشى، أي يصبح غيرَ صادق. في مثل هذه المؤثرات يتعارض الفن مع التاريخ. إذا كان بإمكان التاريخ أن يتحمل فقط أن يتحول إلى عمل فني، أي أن يصبح شكلاً فنياً خالصاً، ربما يكون قادراً على الحفاظ على الغرائز أو حتى إيقاظها. لكن، مثل هذه الطريقة في كتابة التاريخ من شأنها أن تتعارض تماماً مع الاتجاه التحليلي وغير الفني في عصرنا، بل قد يُنظر إليها على أنها تزوير. لكن التاريخ الذي يدمِّر فقط دون

أن يوجهه دافعٌ داخلي بَنَّاء، سيجعل أدواتِه على المدى الطويل غير طبيعية: لأن مثل هؤلاء الناس يدمّرون الأوهام، و«كل مَنْ يُدمِّر الأوهامَ في نفسه والآخرين ستُعاقبه الطبيعة، باعتبارها الطاغية الأشد صرامة». قد يشغل المرء نفسه بالتاريخ، لبعض الوقت، بطريقة غير مؤذية تماماً وغير مبالية، كما لو أنه كان انشغالاً مثل أي انشغال آخر. يبدو أن علم اللاهوت الحديث على وجه الخصوص قد دخل في شراكة مع التاريخ بنحو بريء خالص، وحتى الآن لا يدرك أنه من خلال القيام بذلك، ربما ضد إرادته تماماً، قد دخل في خدمة شعار (33) ecrasez الڤولتيري. لا ينبغي لأحدٍ أن يفترض غرائز بنّاءة جديدة وقوية وراء هذا ــ عندئذ سيتعيّن على المرء أن يعتبر ما يسمى الاتحاد البروتستانتي(34) مهداً لدين جديد، وأن يَعُدّ الفقيه هولتسندورف (الرجل الذي حَرّر وكتب المقدمة التي ما تزال تُسمى على نطاق واسع الكتاب المقدس البروتستانتي) يوحَنّا المعمدان عند ضفاف نهر الأردن. قد تساعد الفلسفة الهيجلية، لبعض الوقت، التي ما تزال تُدَخّن في أذهانٍ شائخة، على نشر تلك البراءة، من خلال تعليم المرء كيفية تمييز «فكرةِ المسيحية» من «أشكالها الظاهرة» العديدة المُشَوّشة، وحتى لإقناع نفسه بأنه «الميل المفضّل للفكرة» لتكشف عن نفسها بأنقى الأشكال أبداً، ولتصل أخيراً إلى الشكل الأنقى والأكثر شفافيةً، والذي يكاد يكون مرئياً في دماغ اللاهوتي الليبرالي المبتذل(35) المعاصر. ولكن إذا استُمِعَ إلى أنقى هذه الأشكال الأنقى من المسيحية تتحدث عن الأشكال السابقة الأقل نقاءً، فغالباً ما يكون لدى المستمع المحايد انطباعٌ بأن ما يجري الحديث عنه ليست المسيحية على الإطلاق بل عن ــ حسناً، بِمَ يجب أن نفكر عندما نعثر على مسيحية وُصفت من قبل «أعظم لاهوتيي القرن»(36) على أنها الدين الذي يسمح لنا «بأن نتعاطف ونتفهم جميع الأديان الفعلية وبعض الأديان الممكنة فقط»، وعندما يُفتَرَض أن «الكنيسة الحقيقية» هي التي «تصبح كتلة سائلة، بلا ملامح واضحة، وحيث يوجد كل جزء منها أحياناً هنا وأحياناً هناك، وكل شيء يختلط بسلام»، ــ مرة أخرى، بِمَ يجب أن نفكر؟

ما يمكن أن يتعلمه المرء من المسيحية ــ التي أصبحت، كنتيجة للمعالجة التاريخية، لا مبالية وغير طبيعية حتى صارت في النهاية تاريخية بالكامل، أي أن التناول العادل قد فكّكها إلى معرفة خالصة عن المسيحية وبالتالي قَضَى عليها ــ يمكن أن يُدرَس في كل ما له حياة: إذ إنه يتوقف عن الحياة عندما يُشَرَّح تماماً، ويعيش بشكل مؤلم ويمرض بمجرد أن يبدأ المرء في تطبيق التشريح التاريخي عليه. هناك بشر يعتقدون بقوى الانقلاب والإصلاح والشفاء للموسيقى الألمانية بين الألمان: وهم يغضبون، ويعتبرون ذلك ظلماً يُرتكب ضد أكثر ما هو حي في ثقافتنا، عندما يرَوْنَ رجالاً مثل موتسارت وبيتهوفن يُغمَرون بالفعل تحت كامل هراء السيرة الذاتية التعليمي، ويُجبَرون على الإجابة عن ألف سؤال وقح من خلال التعذيب المنهجي للنقد التاريخي. أليست الأشياء التي لا تُستَنفَدُ تأثيراتها الحيوية هي التي يُتَخَلَّص منها في وقتٍ قريب جداً، أو على الأقل تُشَلُّ، عندما نُوَجِّه فضولنا النهم إلى تفاصيل لا تعد ولا تحصى من الحياة والأعمال، وعندما يبحث المرء عن قضايا معقدة حيث يجب عليه بدلاً من ذلك أن يتعلم كيف يعيش وينسى كل المشاكل؟ تخيّل فقط عدداً قليلاً من كتّاب السيرة الذاتية المعاصرين الذين نُقِلوا إلى مسقط رأس المسيحية أو الإصلاح اللوثري، ربما كان فضولهم البراغماتي الواقعي كافياً لجعل أي نشاط من بُعد(37) مستحيلاً: تماماً مثلما يمكن للحيوان الصغير الأكثر بؤساً أن يمنع أعظم شجرة بلوط من الظهور إلى الوجود بأكل البلوط. كل كائن حيّ يحتاج إلى جوّ من حوله، حلقة غامضة من الضباب، إذا سلبه أحد من هذا الغطاء، إذا أُدِينَ دينٌ أو فنٌّ أو عبقريٌّ بالدوران كنجم دون مدار، فينبغي أن لا نتعجب بأنه يذوي سريعاً فيصير جافاً ودون ثمرة. هذا هو الحال مع كل الأشياء العظيمة في الواقع، «التي لا تنجح أبداً دون بعض الجنون»، كما يقول هانز ساكس في Meistersinger.(38)

لكن كلّ شعب، وحتى كل إنسان، يريد أن يصبح ناضجاً يحتاج إلى مثل هذا الجنون المُغَلَّف، مثل هذه السحابة الواقية والحاجبة. حالياً، مع ذلك، نحن نكره النضوج على هذا النحو، لأن التاريخ يحظى بشرف أكبر من الحياة. حتى

إن المرء يرى سبباً للانتصار في حقيقة أن «العلم بدأ يحكم الحياة»: ربما سيتحقق هذا، ولكن بالتأكيد الحياة المحكومة بهذه الطريقة ليست ذات قيمة كبيرة، لأنها أقل حياةً بكثير، وتضمن حياةً أقل بكثير للمستقبل من الحياة التي اعتادت أن تكون محكومة ليس بالمعرفة بل بالغرائز والوهم القوي. لكن عصرنا، كما قلت، ليس مفترضا أن يكون عصر شخصياتٍ كاملة وناضجة ومتناغمة، لكن عصرَ عملٍ مشتركٍ مفيد إلى أقصى حد. هذا يعني ببساطة أنه: يجب تدريب الناس لأهداف العصر لتقديم يدِ المساعدة في أسرع وقت ممكن: يجب أن يعملوا في مصنع الصالح العام قبل أن ينضجوا ــ أو بالأحرى لمنع نضجهم ــ لأن ذلك سيكون رفاهية من شأنها أن تحرم «سوق العمل» من قدر كبير من القوة العاملة. تُصاب بعض الطيور بالعمى فتُغَنّي بشكل أجمل: لا أعتقد أن ناسَ اليوم يُغَنّون بشكلٍ جميل أفضل من أجدادهم، لكنني أعلم أنهم أصيبوا بالعمى. ومع ذلك، فالوسائل، الوسائل الشائنة المستخدمة لإصابتهم بالعمى، شديدة السطوع، ومفاجِئة للغاية، وذات ضوء متغيّر جداً. يُعَرَّضُ الشابُّ لِلْجَلد طوال آلاف السنين: الشباب الذين لا يفهمون شيئاً عن الحرب، والعمل الدبلوماسي، والسياسة التجارية، يُعتَبَرون جديرين بحيث يُعَرَّفون بالتاريخ السياسي. ولكن مثلما يسير الشاب عبر التاريخ، نسير نحن الرجال المعاصرين في المعارض الفنية، ونستمع إلى الحفلات الموسيقية. قد يشعر المرء أن هذا يختلف عن ذلك، وهذا يعطي انطباعاً مختلفاً عن ذلك: أن تفقد على نحو متزايد هذا الشعور بالمفاجأة، وأن تعود غير مندهش بشكل مفرط من أي شيء، وأن تتحمل في النهاية كل شيء ــ ذلك ما نسميه بالحس التاريخي والتعليم التاريخي. لنقل ذلك دون تلطيف الكلام: تدفُّق التأثيرات هائلٌ جداً، والحشود الهمجية والعنيفة والمذهلة التي «تدحرجت بكُتَلٍ قبيحة» بأغلبية ساحقة على الروح الشابة، بحيث لا يمكنها إنقاذ نفسها إلا من خلال إضعاف حساسيتها عن عمد. حيث كان يوجد وعي أقوى وأدقّ، ظهر شعورٌ آخر بلا شك: ألا وهو الاشمئزاز. لقد أصبح الشابُّ بلا مأوًى ويشك في كلّ المفاهيم والعادات. وهو يعرف الآن ذلك: كانت الأشياءُ مختلفةً في كل العصور، ولا يُهم كيف أنت. يترك رأياً تلو آخر يمر في لا مبالاة كئيبة،

ويفهم معنى كلمات هلدرلين ومِزاجه عندما قرأ ديوجين اللايرتي(39) عن حياة وتعاليم الفلاسفة الإغريق: «هنا أيضاً، لقد جربت مرةً أخرى ما لاحظته سابقاً عدّة مرات، وهو أن الأفكار والأنظمة البشرية سريعة الزوال والمتغيرة قد أثارت إعجابي بكونها أكثر مأساوية من الأقدار التي عادةً ما تُسمى وحدها الأقدار الحقيقية».(40) لا، أن يُخَدَّر ويُكتَسَح بالتاريخ، كما يبرهن القدماء، ليس أمراً ضرورياً البتة للشاب، بل خطر عليه إلى أقصى درجة، كما يبرهن الحداثيون. لكن انظر الآن إلى التلميذ التاريخي، وريث عدم الاهتمام المَلُول الذي يظهر في وقتٍ مبكر جداً، تقريباً في فتوّته. حصل الآن على «منهج» لعمله، التقنية الصحيحة والأسلوب الدقيق على طريقة سيده، فوقع فصلٌ صغير منعزلٌ تماماً من الماضي ضحيةَ ألمعيّته والأسلوب الذي تعلّمه لقد أنتج شيئاً، بالفعل، ولاستخدام كلمة أكثر زهواً: لقد «خلق» شيئاً، وأصبح الآن خادماً نشطاً للحقيقة عملياً وسيداً في عالم التاريخ. إذا كان قد «نضج» بالفعل كصبيّ، فإنه الآن «مفرط النضج»: ما عليك إلا أن تهزه وستسقط حكمته في حضنك بقعقعةٍ كبيرة، ولكن الحكمة فاسدة وفي كل تفاحة توجد دودة. صدّقني: إذا كان على الناس العمل وأن يكونوا نافعين قبل أن ينضجوا، فسيُدَمَّر العلم في وقتٍ قصير مثل العبيد الذين استخدموا كثيراً في هذا المصنع. يؤسفني اللجوء إلى استخدام المصطلحات اللغوية لمالِكِي العبيد وأرباب العمل من أجل وصف هذه الشروط التي يجب اعتبارها خاليةً من المنافع بشكل أساسي ومعفاة من ضرورات الحياة، لكن الكلمات «مصنع» و«سوق العمل» و«العرض» و«استثمار»، وأيّاً كانتِ الأفعال المساعدة التي تستخدمها الأنانية، تنثال على الشفاه بشكل لا إرادي عندما يريد المرء أن يصف أصغر جيل من العلماء. تصبح الضحالة الصرفة أضحلَ من أي وقتٍ مضى، والعلم أفْيَد بالمعنى الاقتصادي من أي وقت مضى. في الواقع، أحدث العلماء حكيمون من ناحية واحدة فقط، ومن المُسَلَّم به أنهم أحكم من ناس الماضي، لكنهم مختلفون تماماً حول النقاط الأخرى ــ ولنستخدم تعبيراً حذِراً ــ عن جميع العلماء من الطراز القديم. على الرغم من ذلك، فإنهم يطالبون بتكريم ومزايا لأنفسهم، كما لو أن الدولة والرأيَ العام ملزمان بقَبُول العملة

الجديدة بجدية مثل العملة القديمة. لقد أبرم العمّال عقداً بعضهم مع البعض الآخر، وَاسِمين أنفسهم بأنهم عباقرة، وأصدروا مرسوماً بأن العبقرية لا لزوم لها ــ من المحتمل أن يتضح من مبانيهم في وقت لاحق أنها نُقِلَت معاً ولم تُبْنَ. أولئك الذين يكررون بلا كلل الدعوة الحديثة إلى المعركة والتضحية التي هي «تقسيم العمل! اصطفّوا بالترتيب!»،(41) يجب إخبارهم لمرة واحدة وبشكل صريح وواضح: إذا كنتم ترغبون في أن تدفعوا العلم إلى الأمام بأسرع ما يمكن، فستدمّرونه بأسرع وقتٍ ممكن، تماماً كما تموت الدجاجة إذا أجبرت بشكل مصطنع على وضع البيض بسرعة كبيرة. من المؤكد أن العلم قد دُفع إلى الأمام بسرعة مذهلة على مدى العقود الماضية: لكن انظروا فحسب إلى العلماء، الدجاجات المنهكة! هم في الحقيقة ليسوا طبائعَ «منسجمة»، إنهم يستطيعون القوقأة أكثر من أي وقت مضى فقط لأنهم يضعون البيض في أحيان أكثر: بالطبع، أصبح البيض أصغر من أي وقت مضى (حتى وإن صارت الكتب أثخن من أي وقت مضى). كنتيجة أخيرة وأكثر طبيعية، لدينا «الترويج» المفضل عامّةً للعلم (جنباً إلى جنب مع «تأنيثه» و«خلع صفة الطفولية عليه»)، أي القصّ الشائن لرداء العلم كي يناسب «الجمهور الخليط» ــ أن استخدم هذه المرة بالذات تعبيرَ خياط كي أصف نشاط يناسب الخياطين الألمان. رأى غوته في هذا إساءةَ استخدامٍ للعلم وطالب بألا تؤثر العلوم في العالم الخارجي إلا عبر تطبيق عملي مُعزَّز. علاوة على ذلك، كان لدى الجيل الأقدم من الباحثين أسبابٌ وجيهة لاعتبار مثل هذه الإساءة صعبةً ومرهقة: ولنفس السبب الوجيه أيضاً يكون الأمرُ سهلاً على العلماء الأصغر سناً، لأنهم هم أنفسهم، باستثناء زاوية صغيرة من المعرفة، «جمهورٌ مختلِطٌ» إلى درجة كبيرة ويشاركون هذا الجمهور احتياجاته. هم بحاجة إلى الجلوس فقط بشكل مريح أحياناً، وسيكونون قادرين على فتح مكان دراستهم الصغير أيضاً للفضول الذي لا يقاوَم للجمهور المختلط والشعبي. سُمّي مثل هذا العمل المريح فيما بعدُ على نحو طَنّان «التنازل المتواضع من أحد العلماء إلى شعبه»: في حين أن العالِمَ ــ بقدر ما هو سوقيّ وليس عالِما ــ قد انحدر إلى مستواه الخاص به. ابتكروا لأنفسكم

مفهوم «الشعب»: لا يمكنكم التفكير في هذا المفهوم أبداً بطريقة نبيلة أو سامية بدرجة كافية. إذا كنتم تفكرون جيداً في الناس فستكونون رحماء بهم وستحذرون من تقديم مشروبكم المائي القوي(42) التاريخي كمشروب منعِشٍ سريع. لكنكم في العمق تفكرون فيهم قليلاً، لأنكم لم تسمحوا باحترامٍ راسخ وحقيقي لمستقبلهم، وأنتم تتصرفون كمتشائمين عمليين، ما أعني به ناساً يوجههم هاجسُ كارثةٍ قادمة، وبالتالي غير مكترثين وغير مهتمّين برفاهية الآخرين وحتى برفاهيتكم. يا حبّذا لو تستمر الأرض باحتمالها لنا! وإذا كَفَّت عن احتمالنا، فيمكننا قَبُول هذا أيضاً ــ هذا ما يشعرون به وبالتالي يعيشون وجوداً ساخراً.

(32) يمكن أن تترجم إلى الحِسّ أو الإدراك.

(33) Voltairean ecrasez. يشير الى شعار فولتير «ecrasez l’infame’!»، والذي يعني «اسحقوا كل شيء سيئ السمعة»، أي الخرافات والتعصب الذي يعيق تقدم الفكر العقلاني، وبالتالي فإنه موجّه ضد الكنيسة المسيحية بشكل غير مباشر.

(34) الاتحاد البروتستاني، هو الاتحاد العكسري الذي تم تشكليه بين 1608 ــ 1621 من قبل الأمراء البروتستانيين في ألمانيا.

(35) باللاتينية في الأصل theologus liberalis vulgaris.

(36) فردريك شلايرماخر (1768 ــ 1834) هو فيلسوف، ولاهوتي اصلاحي ألماني، ويعد من كبار مفكري عصره.

(37) باللاتينية في الأصل actio in distans

(38) إشارة إلى أوبرا فاغنرDie Meistersinger von Nürnberg كبار مغنّي نورنبرغ، وقد غنّى هانز ساكس هذا البيت في الفصل الثالث من الأوبرا.

(39) ديوجين اللايرتي، كاتب وفيلسوف إغريقي اشتهر في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي.

(40) من رسالة فردريش هلدرلين إلى إسحاق فون سينكلير المؤرخة في 24، ديسمبر 1798.

(41) بالألمانية «In Reih und Glied»، المعنى الحرفي هو انتظم بالترتيب أو اصطف في الصف. أما المعنى العام فهو «الامتثال أو الالتزام أو الموافقة» على ما أُسِّسَ أو القَبُول به عموماً، مثل القواعد والمعتقدات وأنماط السلوك.

(42) ماء يتكون من حمض النتيريك المركز، وقد تعني مشروباً روحياً خطيراً. باللاتينية في الأصل: aqua fortis.

الفصل 12

ـ 8 ـ

قد يبدو الأمر مفاجئاً، لكن من المؤكد أنه ليس متناقضا، إذا نسبتُ نوعا من الوعي الذاتي الساخر إلى عصر اعتاد الانطلاق بشكل ملحوظ وصاخب في ابتهاج غير قلق تجاه ثقافته التاريخية، نوع من الوعي الذاتي الساخر، فكرة مؤلمة إنه لا يوجد ابتهاج هنا، خوف من أن كل الابتهاج بالمعرفة التاريخية سينتهي قريبا. قدّم لنا غوته لغزاً مشابهاً يتعلق بالشخصيات الفردية في وصفه الرائع لنيوتن: لقد اكتشف في أعماق (أو، بدقة أكبر، في أعلى نقطة من) كيانه «تلميحاً غامضاً عن خطئه»، وإن صحّ القول، تعبيراً يمكن إدراكه في لحظات معينة يخطر في وعي نقدي متفوق بَلَغ وجهة نظر ساخرة معينة عن طبيعته الداخلية الضرورية. لذلك، إنما بخاصة في أعظم الرجال التاريخيين والأكثر تطوراً نجد وعياً، غالباً ما يكون مُصْمَتاً إلى درجة الشك العام، عن مدى عظمة العبث والخرافة في الاعتقاد بأن تعليم الشعب يجب أن يكون في الغالب تاريخياً كما هو الآن. ومع ذلك، أقوى الشعوب، أي الأقوياء في الأفعال والأعمال، عاشت بشكل مختلف، ورَبّت شبابها بصورة مختلفة. لكن تلك العبثية والخرافة مناسبة لنا ــ هكذا يجري الاعتراض المتشكك ــ بالنسبة إلينا، نحن البراعم الأخيرة الشاحبة من أجيال أقوى وأكثر ابتهاجاً، نحن الذين تنطبق عليهم نبوءة هسيود(43) أن الناس سيولدون ذات يومٍ بشعر رمادي {لِعَجزهم}، وأن زيوس سيدمّر هذا الجيل حالما يرى تلك العلامة فيه. التعليم التاريخي هو في الواقع نوع من الشيب الملازم للولادة، ومن المؤكد أن أولئك الذين يحملون بصماته منذ الطفولة يجب أن يصلوا إلى الإيمان الغريزي بالشيخوخة البشرية: من المناسب الآن للشيخوخة الانخراط في نشاط كبار السن، أي أن ننظر إلى الوراء، وأن

نحصي ونغلق حساباتنا، وأن نطلب المواساة في الماضي من خلال الذكريات، وباختصار: التعليم التاريخي. لكن الجنس البشري هو أمر حازم ومثابر ولا يريد أن يُلاحَظَ في تقدّمه ــ إلى الأمام أو الخلف ــ بعد آلاف السنين، أو بالكاد حتى بعد مئات الآلاف من السنين. أي إنه لا يريد على الإطلاق أن يُلحظ كَكُلٍّ من قِبَل تلك الذرة المتناهية الصغر، ألا وهي الإنسان الفرد. ماذا تعني بضعة آلاف من السنين، على رغم كل شيء (أو بعبارة أخرى: فترة أربع وثلاثين حياة بشرية متتالية بستين عاماً لكل حياة)، لتكونَ قادراً على التحدث عن «شباب» البشرية في بداية مثل هذا الوقت، وفي نهايته عن «شيخوخة» البشرية؟ أليس في هذا الاعتقاد المسبِّب للشلل بجنس بشري آخذ بالأحرى بالذبول بالفعل يوجد سوء فهم لفكرة لاهوتية مسيحية وُرثت من العصور الوسطى، فكرة أن نهاية العالم قادمة، وأننا ننتظر بخوفٍ يوم الدينونة؟ أليست الحاجة المتزايدة إلى الحكم التاريخي هي تلك الفكرة نفسها ولكن في ثوب جديد، كما لو كان عصرنا ــ بوصفه آخر عصر ــ مفوَّضاً كي يمارس على كل الماضي هذا الحكم التاريخي الذي افترض الاعتقاد المسيحي أنه لن يعلنه البشر بل «ابن الإنسان»؟ كانت «تذكرة الموت»(44) هذه، في العصور الأقدم، الموجهة إلى البشرية وكذلك إلى الفرد، دائماً بمثابة شوكة تعذيب كما كانت قضية سامية في معرفة وضمير العصور الوسطى. أما نقيضتها، «تذكرة الحياة»(45) الحديثة، وللتحدث بصراحة، فما تزال تبدو حَيِيّة للغاية وتفتقر إلى القوة الكاملة ويكاد يكون لديها شيء غير أمين بشأنها. فما تزال البشرية مرتبطة بمذكرة الموت وتخونها في حاجتها التاريخية الشاملة: لم تتمكن المعرفة، على الرغم من خفقات أجنحتها، من تخليص نفسها والحصول على الحرية، وقد بقي شعورٌ عميق باليأس قائماً واستمر في ذلك، واتخذ هذا التلوين التاريخي الذي طَوّق الآن كل التعليم العالي والثقافة بظلام كئيب. إن الدين الذي يعتبر الساعات الأخيرة من بين كل ساعات حياة الإنسان هي الساعات الأهم، والذي يتنبأ بنهاية الحياة على الأرض على هذا النحو، ويحكم على الأحياء أن تعيش في الفصل الخامس من التراجيديا، يحفز بالتأكيد أعمق وأنبل القوى، لكنه معادٍ

لكل غرسٍ جديد وللمحاولة الجريئة والرغبة الحرّة، إنه يقاوم كل تحليق نحو المجهول، لأنه لا يحب أو يأمل أي شيء هناك: وضد إرادته فقط يسمح لما هو في طور الصيرورة أن يُفرض عليه، ومن ثَمّ، عندما يحين الوقت المناسب، يمكن استبعاد والتضحية بهذه الصيرورة، التي تغوي للوجود وتكذب بشأن قيمة الوجود. تود المسيحية أن تفعل لكلّ ثقافة، تحفّز على المزيد من النضال وتتخذ شعاراً لها «تذكرة الحياة»، ما فعله الفلورنسيون تحت تأثير وعظ سافونارولا التكفيري، عندما ألقوا اللوحات والمخطوطات والمرايا والأقنعة في النيران القربانية الشهيرة، وإذا لم يكن من الممكن القيام بذلك بشكل مباشر ودون التفاف، أي بالقوة المتفوقة، فإنها تحقق هدفها من خلال التحالف مع الثقافة التاريخية، وعادةً دون تواطؤ الأخيرة، والآن، بالتحدث باسم هذا التعليم التاريخي، ترفض بلا اكتراث كل شيء ما زال يظهر إلى الوجود وتنشر فوقه الشعور بكونه وافداً متأخراً ومقلِّداً، باختصار كونه بالفطرة ذا شعر أشيب. الملاحظة الصارمة والجادة للغاية المتعلقة بعدم قيمة كل ما كان، وفيما يتعلق بنضج العالم للحكم، تُشَتت نفسها في الموقف المتشكك الذي يقول إن معرفة كل ما حدث هي على أي حال أمر جيد، ما دام أن الأوان قد فات لفعل أي شيء أفضل. وعلى هذا النحو يجعل الحسّ التاريخي خُدّامه سلبيين ومتطلعين إلى الوراء. ومن خلال نسيان مؤقت تقريباً، وفي فترة زمنية وجيزة من عدم نشاط هذا الحس التاريخي، يصبح الإنسان المصاب بحمّى التاريخ نشطاً، وبمجرد انتهاء هذا الإجراء فإنه يشرّحه ويمنعه من الاستمرار في العمل من خلال التفكير فيه تحليلياً، وأخيراً يسلخه من أجل «الدراسة التاريخية». ما زلنا نعيش بهذا المعنى في العصور الوسطى، وما يزال التاريخ لاهوتاً مقنّعاً: تماماً كما أن التبجيل الذي يمنحه الشخص العادي غير العلمي للطبقة العلمية هو تقديس موروث من رجال الدين. ما قدمه المرء في وقت سابق إلى الكنيسة يمنحه الآن، ولو بشكل أكثر اقتصاداً، للعلم: لكن ذلك الذي يعطيه المرء، بأي حال، هو نتيجة لتأثير الكنيسة السابق ـ أما الروح الحديثة، التي من المعروف عنها، إلى جانب

صفاتها الحسنة الأخرى، أنها بخيلة إلى حد ما وملهوجة(46) عندما يتعلق الأمر بفضيلة السخاء النبيلة.

ربما لا تكون هذه الملاحظة مُرضية، ربما هي كذلك بقَدْرِ استنتاجي السابق لفائض التاريخ من مذكرة موت العصور الوسطى ومن اليأس الذي تحمله المسيحية في قلبها تجاه جميع الأزمان القادمة من الوجود الأرضي. لكن بعد ذلك، لنستبدل هذا التفسير، الذي أعرضه مع بعض الشك، بتفسير أفضل: بالنسبة إلى أصل التعليم التاريخي ــ وتناقضه الداخلي الجذري تماماً مع روح أي «عصر جديد» وأي «وعي حديث» ــ يجب أن يُفهم هذا الأصل نفسه بدروه تاريخياً، ويجب على التاريخ أن يحل مشكلة التاريخ، ويجب أن تحوّل المعرفة لَسْعَتها تُجاه نفسها ــ يجب أن تكون هذه الثلاثية حتمية لروح «العصر الجديد»، بافتراض أن هذا العصر يحتوي حقاً على شيء جديد وقوي وأصلي وواعد بالحياة. أم ينبغي أن يكون صحيحاً أننا نحن الألمان ــ من أجل ترك الشعوب الرومانية {الرومنسية/ اللاتينية} خارج الحساب ــ علينا أن نكون «أحفاداً» فقط في جميع الشؤون الثقافية العليا، لأن هذا هو ما يمكننا أن نكون عليه، كما قال ڤلْهلم ڤاكرناچِل ذات مرة هذه الجملة المثيرة للتأمل: «نحن الألمان بكل بساطة شعبٌ من الأحفاد، ونحن مع كل معرفتنا العالية، وحتى بإيماننا، لسنا أكثر من خلفاء للعالم القديم فقط. حتى أولئك الذين لا يريدون ذلك يتنفسون باستمرار من الروح الخالدة للثقافة الكلاسيكية القديمة، إلى جانب روح المسيحية، وإذا نجح أحدٌ في إقصاء هذين العنصرين من الجو الحيوي الذي يحيط بالعالم الداخلي للإنسان، فلن يبقى الكثير للحفاظ على الحياة الروحية». ولكن حتى لو أردنا أن نُطَمْئن أنفسنا بهذه المهنة المتمثلة في كوننا أحفاد العصور القديمة ــ حتى لو قررنا بشكل قاطع أن نأخذ الأمر على محمل الجد ونفكر فيه بشكل كبير، وأن نعترف به امتيازَنا الوحيد والفريد ــ فإننا مع ذلك، سنكون مضطرين إلى أن نسأل عمّا إذا كان قدرنا الأبدي حقاً أن نكون تلاميذَ عصور قديمة مضمحلة: في فترة ما قد يُسمح بتحديد هدفنا خطوة خطوة بشكل أعلى وأبعد، وفي وقت ما يجب أن

نكون قادرين على مدح أنفسنا لأننا أعدنا خلق روح الثقافة الإسكندرية ـ الرومانية فينا، من خلال تاريخنا العام أيضاً، بشكل مثمر ونبيل، حيث يمكننا الآن، كأفضل مكافأة، أن نُحَمِّلَ أنفسنا مهمةً أصعب متثملة في السعي وراء هذا العالم الإسكندري وما بعده والبحث بجرأة عن نماذجنا في العالم الإغريقي القديم بكل عظمته وطبيعته وإنسانيته. لكن هناك سنجد أيضاً حقيقة تعليم Bildung غير تاريخي بشكل أساسي، وهو مع ذلك تعليم، أو بالأحرى على هذا الأساس، غنيٌّ ومملوء بالحياة بشكل لا يوصف. وحتى لو لم نكن نحن الألمان سوى أحفاد ـ فليس يمكننا، من خلال النظر إلى هذا التعليم باعتباره ميراثاً يجب تخصيصه، إلا أن نكون أعظم وأكثر الأحفاد فخراً.

ما أعنيه بهذا فقط ولا شيء غيره، أنه حتى التفكير المعذب أحياناً بكونك من الذرية (epigoni)،(47) عندما يُصَوَّر بشكل رائع، قد يضمن تأثيرات كبيرة ورغبةً مفعمة بالأمل في المستقبل، في الفرد كما في الناس، بشرط أن نتصور أنفسنا ورثةً وخلفاء للقوى الكلاسيكية المهيبة ونرى في ذلك شرفنا وحافِزَنا. وما أعني قوله هو أن لا نتصور أنفسنا كالوافدين المتأخرين الشاحبين الضعفاء من أجيال قوية تطيل حياتها الجامدة بوصفها آثاريين وحفاري قبور. يعيش هؤلاء الوافدون المتأخرون، بطبيعة الحال، في وجود مثير للسخرية: فالفناء يتبع في أعقاب مسارهم الذي يعرج خلال الحياة، ويرتجفون من فكرة هذا الفناء لأنهم يستمتعون بالماضي، لأنهم ذكريات حيّة، لكن ذاكرتهم لا معنى لها دون وريث. وهكذا يتغلب عليهم هاجس قاتم بأن حياتهم ظلم، لأنه لا توجد حياة مستقبلية يمكن أن تبررها.

ومع ذلك، إذا فكرنا في هؤلاء القادمين المتأخرين من العصور القديمة يبادلون فجأة هذا التواضع المؤلم الساخر بالوقاحة، وإذا تخيلناهم وهم يعلنون بصوتٍ ثاقب: العِرق في أوج ذروته، لأنه الآن فقط يمتلك معرفة عن نفسه، وأصبح مكشوفاً لنفسه ـ سيكون لدينا مشهدٌ يمكننا من خلاله، كما في مَثَلٍ، اكتشاف مغزى فلسفة معينة مشهورة جداً للتعليم الألماني. أعتقد أنه لم يكن

هناك تغيير أو تحول خطير في التعليم الألماني في هذا القرن، ولم يصبح أخطر بسبب التأثير الهائل والمستمر حتى هذه اللحظة لهذه الفلسفة الهيجلية. حقاً إن الاعتقاد بأن أحداً هو وافد متأخر من العصور القديمة مُشِلٌّ ومزعج: ولكن يجب أن يبدو مخيفاً ومدمراً، مع ذلك، إذا صار هذا الاعتقاد يوماً ما يؤلّه هذا القادم المتأخر، من خلال انقلاب جريء، باعتباره المعنى الحقيقي وهدف كل الحوادث السابقة، وعندما يُعَادَلُ بؤسُه المعرفي مع اكتمال تاريخ العالم. لقد عوّدت مثلُ هذه الطريقة في النظر إلى الأمور الألمانَ الحديثَ عن «سيرورة عالمية» وتبريرَ عصرهم كنتيجة ضرورية لهذه السيرورة العالمية: وضعت هذه الطريقة في النظر إلى الأشياء التاريخَ في مكان القوى الأخرى، الفن والدين، وجعلته صاحب السيادة الوحيد، بقدر ما يكون التاريخ هو «مفهوم يدرك ذاته» و«ديالكتيك روح الشعوب» و«الدينونة الأخيرة».

هذا التاريخ، الذي فُهم بطريقة هيجلية، سُمّي بازدراء إقامةَ اللّه على الأرض، على الرغم من أن هذا الإله نفسه هو نتاج التاريخ فقط. لكن هذا الإله أصبح شفافاً ومفهوماً لنفسه في الجماجم الهيجلية وارتقى بالفعل كلَّ الدرجات الممكنة بشكل ديالكتيكي لتطوره وصولاً إلى هذا الكشف الذاتي: بحيث تزامنت ذروة ونهاية السيرورة العالمية بالنسبة إلى هيجل مع وجوده في برلين. في الواقع، كان يجب عليه أن يقول إن كل ما جاء بعده كان من المناسب اعتباره مجرد تذييل لمقطوعة التاريخ العالمي الموسيقية، أو، على نحو أدق، كزيادة. هو لم يقل هذا: بدلاً من ذلك، غرس في تلك الأجيال لتي ترعاها فلسفته ذلك الإعجاب بـ«قوة التاريخ» الذي يتحوّل عملياً في كل لحظة تقريباً إلى إعجابٍ صريح بالنجاح ويؤدي إلى عبادة صنم الوقائع: التي من أجل خدمتها الآن يحفظ المرء بشكل عام العبارة الأسطورية للغاية والألمانية كثيراً: «أَخْذُ الوقائع بعين الاعتبار». لكن مَن تعلّم مرةً أن يحني ظهره ويطأطئ رأسه أمام «قوة التاريخ»، يُومِئ أخيراً بـ«نعم» ميكانيكيّاً كدمية صينية لكل قوة، سواء كانت حكومة أو رأياً عامّاً أو أغلبية عددية، ويحرك أطرافه بدقة في الإيقاع الذي تحرّك فيه قوةٌ ما أو غيرها الأوتار. إذا

كان كل نجاح ضرورة عقلانية، إذا كان كل حدث هو انتصار للمنطق أو «الفكرة» ــ فاجْثُ، إذن، على ركبتيك بسرعة وأَظْهِرِ إجلالك على كل درجة من سلّم «النجاح»! ماذا، ألا يوجد مزيد من الأساطير الحاكمة؟ ماذا، هل الأديان على وشك الانقراض؟ انظر فحسب إلى دين سلطة التاريخ، انظر إلى كَهَنة أسطورة الفكرة ورُكَبهم المهروشة! أليست حتى كل الفضائل تتبع هذا الإيمان الجديد؟ أو أليس إنكاراً للذات عندما يسمح الإنسان التاريخي لنفسه بأن يُفَرَّغ إلى الدرجة التي يصبح فيه زجاجاً ذا مظهر موضوعي؟ أليس من الكرم أن تتخلى عن كل سلطان في السماء وعلى الأرض، بعبادة السلطة على هذا النحو في كل سلطة؟ أليس من العدل دائماً أن تحمل ميزان القوى في يدك وتراقب بعناية أيّ الجهتين تميل إلى أن تكون الأثقل والأقوى؟ ويا لها من مدرسة لياقةٍ أن تتأمل التاريخ بمثل هذه الطريقة! أن تأخذ كل شيء بموضوعية، وأن لا تكون غاضباً من أي شيء، وأن لا تحب شيئاً، وأن تفهم كل شيء، ما أشدّ ما يجعل هذا المرء مرناً ورقيقاً. وحتى إذا كان أحد الأشخاص الذين نشؤوا في هذه المدرسة يغضب ويسخط علناً في بعض الأحيان، فإن المرء يسعد بهذا، لأن المرء يعرف أنه مقصود من الناحية الفنية فقط. إنه غضب وتحيّز، ومع ذلك فهو دون سخط وتَحَزُّب sine ira et studio (48) تماماً.

يا لها من أفكار عتيقة في صدري تُجاه مثل هذه الأسطورة والفضيلة المعقدتين! لكن يجب أن أعلن عن هذه الأفكار، حتى لو أثارت الضحك. لذلك أود أن أقول ما يلي: دائماً ما يلقّننا التاريخ: «كان هناك ذات مرةٍ»، والمغزى من هذا أنه: «ينبغي لك ألّا» أو «ينبغي أن لا يكون لديك». وهكذا فإن التاريخ يرقى إلى خلاصة من الفجور {اللا أخلاقية} الفعلي. ما أشدّ خطأ مَنْ كان في نفس الوقت ينظر إلى التاريخ على أنه القاضي على هذا الفجور الفعلي! أن على رفائيل أن يموت، على سبيل المثال، في سن السادسة والثلاثين، هي إساءة للأخلاق: مثل هذا الكائن يجب أن لا يموت. إذا كنتم ترغبون في دعم التاريخ، كمبررين للواقع، فستقولون: «لقد عبر عن كل ما كان عليه أن يقوله،

ولو عاش لفترة أطول لكان دائماً ما سينتج تكراراً للجمال الذي خلقه من قبل، وليس نوعاً جديداً من الجمال الجديد»، وأشياء من هذا القبيل. وعلى هذا النحو فأنتم محامو الشيطان، إذ تجعلون النجاح الواقعي das faktum (49) وثنكم، في حين أن الحقيقة دائماً ما تكون غبية وتجسد في جميع الأوقات عِجلاً أكثر من إله. وعلاوة على ذلك، باعتباركم منافحين عن التاريخ، فإنكم مدفوعين إلى الجهل: وفقط لأنكم لا تعرفون أي طبيعة طابِعَة(50) هو رفائيل، لا تغضبون عندما تعرفون أن رفائيل كان موجوداً ذات مرة ولن يكون موجوداً بعد اليوم. لقد أراد شخصٌ ما أن يعلمنا مؤخراً أن غوته استنفد نفسه في الثانية والثمانين من عمره: ومع ذلك، سأكون سعيداً بتبادل بضع سنوات من غوته «المستَنْفَد» مقابل حمولات كاملة من حَيَوات الحياة الحديثة للغاية، من أجل المشاركة في مثل هذه المحادثات التي أجراها مع إيكرمان، بذا أكون قد حافظت على نفسي من التعاليم الحديثة لفيالق الحاضر. كم عدد الناس الأحياء الذين لهم حق العيش، بالمقارنة مع هؤلاء الموتى! أن يعيش العديد وأن هؤلاء القلّة كفّوا عن العيش ليست سوى حقيقة قاسية، أي حماقة لا يمكن إصلاحها، و«هكذا هو الأمر» فظّة في تعارض مع الأخلاق التي تقول «ينبغي أن لا يكون الأمر هكذا». نعم، في تعارض مع الأخلاق! لأنه يمكنك أن تتحدث عن أي فضيلة تريدها: عن العدل، والكرم، والشجاعة، عن حكمة الإنسان وتعاطفه ــ في كل حالة من هذه الأخيرة يصير الإنسان فاضلاً عندما يسخط ضد تلك القوة العمياء لما هو واقعي، وضد استبداد ما هو فعليّ، وعندما يخضع لقوانين ليست هي قوانين تلك التقلبات التي تجري في التاريخ. إنه يسبح دائماً ضد تيار التاريخ، سواء من خلال التحكم بعاطفته باعتبارها أقرب حقيقة غبية لوجوده، أو بالتزامه الصدق في حين تُحاك شبكات الأكاذيب المتلألئة من حوله. لو لم يكن التاريخ أكثر من «نظام عالمي من العاطفة والخطأ»، لكان على البشر أن يقرؤوا فيه كما نصح غوته بقراءة ڤيرتر: كما لو أنه ينادي بهم: «كُنْ إنساناً ولا تتبعني!». لحسن الحظ، مع ذلك، فإن التاريخ يحافظ أيضاً على ذكرى المقاتلين العظماء ضد التاريخ، أي ضد القوة العمياء للواقع، ويضع نفسه على هيكل التعذيب تحديداً بتمجيده هؤلاء

الرجال باعتبارهم الطبائع التاريخية الحقيقية التي لم تهتمّ إلا قليلاً بـ«هكذا هو الأمر» كي تَتّبِع «هكذا يجب أن يكون» بكل فخرٍ جَذِلٍ. وهم يفعلون هذا لا ليحملوا عِرقَهم إلى القبر، بل لتأسيس جيلٍ جديد من هذه العِرق ــ وهذا هو ما يدفعهم إلى الأمام بلا توقف: وحتى لو كانوا مولودين كوافدين متأخرين ــ هناك طريقة للعيش ستمحو هذا من ذاكرتهم ــ لن تعرفهم الأجيال القادمة إلا كقادمين أوائل.

(43) هسيود أو هسيودس، هو شاعر إغريقي مشهور، يعتقد أنه عاش في الفترة بين 750 و650 قبل الميلاد.

(44) باللاتينية في الأصل memento mori، والترجمة الحرفية هي «تذكر يجب أن تموت»

(45) باللاتينية في الأصل memento vivere وهي أيضاً بمعنى «تذكر أن تعيش»

(46) الملهوج هو الذي لا يتقن عمله.

(47) مفردة epigoni وردت أصلاً في الأساطير اليونانية، وتعني ذرية، وهم أبناء أبطال Argive السبعة ضد ثيبس. كما يمكن أن تترجم إلى أحفاد وسلالة، إلخ.

(48) وصف تاسيتوس طريقته الخاصة في كتابة التاريخ بأنها «sine ira et studio»، أي دون سخط وحَمِية متحزّبة أو متحيزة.

(49) Das faktum يمكن أن تترجم ايضا الحقيقة، الواقع، او الفعلي، العملي.

(50) باللاتينية في الأصل natura naturans. مصطلح سبينوزا عن الإله من ناحية خلق الطبيعة، على عكس الطبيعة الخلّاقة ــ كسبب للأشياء. والمعنى

الأكثر مرونة هو الطبيعة تفعل ما تفعله الطبيعة. ينبغي التمييز بين الطبيعة الإبداعية وبين الطبيعة الطبيعية أو المخلوقة.

الفصل 13

ـ 9 ـ

أعصرنا يا ترى مثل هذا الوافد الأول؟ ــ في الواقع، إن حدّة إحساسه التاريخي كبيرة للغاية وتعبّر عن نفسها بمثل هذه الطريقة الشاملة وغير المحدودة بالضرورة، بحيث في هذا الصدد على الأقل ستمتدحها الأزمنة القادمة باعتبارها الوافد الأول ــ بافتراض أنه سيكون هناك أي عصور مستقبلية يمكن فهمها على أنها ثقافية. لكن هذا بالذات هو الذي يثير فينا شكاً عميقاً. نجد سخرية الإنسان الحديث من نفسه في صلة وثيقة بكبريائه، وإدراكه أن عليه أن يعيش في جو تاريخي، و، إن جاز التعبير، آفِلٍ، وخوفه من عدم القدرة على ادّخار أي شيء من آماله الشابة وطاقته من أجل المستقبل. يذهب المرء هنا وهناك إلى أبعد من ذلك، إلى الاستخفاف،(51) ويبرر سير التاريخ بل في الواقع تطور العالم بأكمله، بنحو مخصص للاستخدام اليومي للإنسان الحديث، وفقاً للمبدأ الساخر: هذه اللحظة بالذات ينبغي أن تأتي تماماً كما هي، ينبغي للإنسان أن يكون كما يكون الناس الآن وليس أي شيء آخر، لا يجوز لأحد أن أن يعارض هذه الـ«يجب». إن مَن لا يحتمل التهكم يهرب إلى راحة كَلْبِية من هذا النوع، وقد قدّم العقد الماضي لمثل هذا الشخص، علاوة على ذلك، هديةً واحدة من أجمل اختراعاته، وهي عبارة كاملة ومصقولة لتلك الكلبية: إنها تسمي طريقته في العيش بما يتماشى مع العصر وبطريقة غير تأملية تماماً «الاستسلام الكامل لشخصية المرء للسيرورة العالمية». الشخصية والسيرورة العالمية! السيرورة العالمية وشخصية البرغوث الأرضي.(52) لو أن شخصاً واحداً فقط لم يكن مجبراً أبداً على سماع مبالغة المبالِغين، الكلمة: «عالَم، عالم، عالم»، في حين أن على المرء، إذا بقينا صادقين، أن يتحدث فقط عن «إنسان، إنسان، إنسان»! وريثو

الإغريق والرومان؟ وريثو المسيحية؟ كل هذا لا يبدو شيئاً لهؤلاء المتهكمين. أما ورثة السيرورة العالمية! ذروة وهدف السيرورة العالمية! معنى وحلّ كل لغز من أحجيّة الصيرورة تتجلى في الإنسان الحديث، أنضج ثمار شجرة المعرفة! هذا ما أسميه فَخَاراً متضخماً، هذه هي العلامة التي يمكن من خلالها التعرف إلى البِكر من بين جميع العصور، بغض النظر عما إذا كان هو أيضاً آخر مولود في نفس الوقت. لم تحلّق رؤية التاريخ عالياً أبداً بهذه الدرجة، ولا حتى في الأحلام، لأن تاريخ البشرية الآن هو مجرد استمرار لتاريخ الحيوانات والنباتات، حتى في أدنى أعماق البحر ما يزال المورخ الشامل يجد آثاراً لنفسه كوحل حي، ناظراً إلى الخلف بذهول نحو المسار الهائل الذي قطعه الإنسان بالفعل، يزيغ بصره على مرأًى من تلك المعجزة الأكثر إثارة للدهشة: الإنسان الحديث نفسه، القادر على استكشاف هذه المسافة الهائلة. يقف شامخاً وفخوراً على هرم السيرورة العالمية، إذ يضع حجر الأساس لمعرفته على ذروتها، يبدو أنه ينادي بالطبيعة المصغِيَة من حوله: «لقد وصلنا إلى الهدف، نحن الهدف، نحن اكتمال الطبيعة».

أيها الأوربي المتغطرس من القرن التاسع عشر، إنك مجنون! معرفتك لا تُكَمِّل الطبيعة، إنها تدمر طبيعتك فقط. قارن لمرةٍ أعالي قدرتك على المعرفة بأعماق عجزك عن الفعل. من المُسَلّم به أنك تتسلق على أشعة شمس المعرفة الخاصة بك صعوداً إلى السماء، لكنك تنحدر أيضاً إلى الفوضى. إن طريقتك في الحركة، طريقة تسلقك كعارفٍ، هي نكبتك. تتقهقر الأرض الصلبة بالنسبة إليك إلى عدم يقين، وما من مزيد من الدعم لحياتك، فكلّ ما هو موجود إنما خيوط عنكبوت يمزّقها كلُّ فهمٍ جديد منك للمعرفة. ــ ولكن لنكتفِ بهذا القدر من الكلمات الجديّة حول هذا الموضوع، ما دام ممكناً النظر إليه بنحو أكثر مَرَحاً.

هذا التشرذم الطائش والانهيار لكل الأسس بجنون، وتفككها إلى صيرورة متدفقة ومشتتة باستمرار، والتشابك الدؤوب والتَّأْرَخة لكل ما وُجِدَ وما زال

يوجد من قِبَل الإنسان الحديث، ذلك العنكبوت الكبير في مركز الشبكة العالمية ـ قد يشغل هذا الأمر ويقلق الأخلاقي، والفنان، والورع، وحتى رجل الدولة. من المفترض أن تروق لنا رؤية كل هذا في المرآة السحرية اللامعة لـرجل محاكاةٍ ساخرٍ فلسفيٍّ يصل العصر في رأسه إلى وعي ساخر بنفسه، وذلك بشكل واضح «يرقى إلى عمل شائن» (للتحدث بلغة غوته). علّمنا هيجل ذات مرة: «عندما تتحرك الروح، فنحن الفلاسفة نكون هناك أيضاً»: قام عصرنا بحركة نحو السخرية من الذات، ويا للعجب! كان إي فون هارتمان حاضراً أيضاً وكتب فلسفته الشهيرة عن اللا وعي، أو، للتحدث بشكل أوضح ـ فلسفته في السخرية اللا واعية. نادراً ما قرأنا اختراعاً أو قطعة فلسفية من الاحتيال أكثر مرحاً من تلك التي كتبها هارتمان: كل مَن لم يَسْتَنر من خلاله حول الصيرورة، ومَن لم يتم تطهيره من الداخل، فإنه ناضج حقاً ليغدو شيئاً عَفّى الزَمان عليه. بداية ونهاية السيرورة العالمية، من أول هزّة وعي مَذهولة إلى النقطة التي عادت فيها إلى العدم، إلى جانب المهمة المحددة بدقة لجيلنا في هذه السيرورة العالمية، كل هذا قُدِّم على أنه مباشرٌ من ينبوع إلهام اللا وعي، متوهجاً في نور رُؤيويّ، كل شيء قُلِّد بشكل مخادع وبجدية شديدة كما لو كان حقاً فلسفة حقيقية جادة وليس مجرد مزحة فلسفية ـ فكل هذا التكوين يُميِّز مبتكِرَه كأحد رواد المحاكاة الساخرة الفلسفيين في كل العصور. لذلك دعونا نُضَحِّ، دعونا نضحِّ على مذبح مخترع الدواء الحقيقي بخصلة من الشعر ـ سارقاً هنا إحدى عبارات شلايرماخر للتعبير عن الإعجاب. إذ أي دواء هذا الذي يمكنه أن يكون أكثر فعالية ضد الإفراط في الثقافة التاريخية من محاكاة هارتمان الساخرة {باروديا} لتاريخ العالم؟

إذا أردنا أن نعبر باختصار عمّا يعلنه هارتمان من بين حامل سخريّته اللا واعية وثلاثية القوائم المغطى بالدخان، فسنقول: إنه يخبرنا أنه يكفي لعصرنا، كي يظل كما هو، أن تُدفَع البشرية إلى السأم تماماً من هذا الوجود الذي نؤمن به حقاً: وهو اعتقاد نتفق معه من قلوبنا. هذا التحجّر المروّع لعصرنا، هذه الطقطقة المضطربة للعظام ـ كالتي وصفها ديفيد شتراوس بسذاجة لنا بأنها

أجمل الحقائق ــ يبرّرهما هارتمان، ليس فقط من الخلف، من خلال الأسباب الفعالة،(53) ولكن حتى من الأمام، من خلال السببية الغائية(54): يدعُ المحتالُ نورَ اليوم الأخير يسطع على عصرنا، ومن هذا المنطلق يجد أن عصرنا عصرٌ جيدٌ جداً، أي بالنسبة إلى أولئك الذين يريدون أن يعانوا قَدْر الإمكان من عُسر هضمِ الحياة، والذين لا يمكنهم بلوغ ذلك اليوم الأخير بسرعة كافية. من المؤكد، إن هارتمان يسمّي العصر الذي تقترب إليه البشرية الآن بـ«عصر الرجولة». ومع ذلك، ووفقاً لوصفه، هذه هي الحالة السعيدة التي لا يوجد فيها سوى «ضحالة خالصة»، والفن فيها يساوي «ما يعنيه، مثلاً، أداء تمثيلية هزلية مساءً لرجل بورصة في برلين»، وفيها «عاد العباقرةُ لا يكونون من متطلبات العصر، لأن ذلك يعني إلقاء اللآلئ أمام الخنازير، أو لأن العصر قد تقدم إلى ما بعد المرحلة الملائمة للعباقرة، إلى مرحلة أهمّ» ــ أي إلى تلك المرحلة من التطور الاجتماعي حيث كلّ عامل «يعيش حياة مريحة، لأن ساعات عمله توفّر له وقت فراغٍ كافياً للتنمية عقله». يا محتال المحتالين، أنت تمنح صوتاً لتطلعات البشرية المعاصرة: لكنك تعرف أيضاً الشبح الذي سيقف في نهاية سنوات الرجولة هذه كنتيجة لذلك التعليم الفكري عن الضحالة الخالصة ــ ألا وهو الاشمئزاز. من الواضح أن الأمور بائسة للغاية، لكنها ستكون أكثر بؤساً، «المسيح الدجال(55) يوسع تأثيره بشكل واضح على نطاق أكبر وأكبر»، لكن ذلك ما ينبغي أن يكون، وهذا ما يجب أن يأتي، إذ إن الطريق الذي سلكناه لا يقود إلا إلى الشعور بالاشمئزاز من كل الوجود. «لذلك دعونا نَسْعَ بقوةٍ إلى الأمام في سيرورة العالم، كعمّالٍ في مزرعة كُرُوم الرّب، لأن السيرورة هي وحدها التي يمكن أن تؤدي إلى الانعتاق».

مزرعة كروم الرب! السيرورة! إلى الانعتاق! مَن لا يرى ويسمع في هذا كيف أن التعليم التاريخي، الذي لا يعرف سوى كلمة «الصيرورة» becoming، يتستر عمداً وراء تشويهٍ مقلِّد ساخر، وكيف يتفوه بأكثر العبارات المستهترة عن نفسه من وراء هذا القناع البشع؟ فماذا تطلب هذه الدعوة الخبيثة

الأخيرة من العمال في مزرعة الكروم حقاً؟ في أي عمل من المفترض أن يسعوا بقوة إلى الأمام؟ أو لطرح السؤال بشكل مختلف: ما الذي بقي للإنسان المثقّف بشكل تاريخي، المتعصب الحديث للسيرورة، السابح والغارق في تيار الصيرورة، إنْ كان عليه يوماً جمع حصاد ذلك الاشمئزاز، وهو أَلَذُ عِنَبٍ في حقل الكروم؟ ــ ليس عليه أن يفعل شيئاً سوى الاستمرار في العيش كما عاش حتى الآن، ومواصلة حب ما يحبه، والاستمرار في كره ما كَرِهه، وقراءة الصحف التي قرأها. هناك خطيئة واحدة فقط بالنسبة إليه ــ أن يعيش بشكل مختلف عن الطريقة التي عاش بها. لكن كيف عاش إلى الآن هو أمر قِيلَ لنا بوضوح الحروف المفرط المنقوشة بالحجر على تلك الصفحة المشهورة المطبوعة بحجم كبير التي نقلت كل الرعاع المتعلمين المعاصرين إلى نشوة عمياء وغضب منتشٍ، لأنهم يقرؤون في هذه الجمل تبريرهم الخاص في ضوء رُؤيَويّ. فما يطلبه المحاكي الساخر اللا واعي من كل فرد هو «استسلام الشخصية الكامل للسيرورة العالمية من أجل هدفها، وهو خلاص العالم»، أو بوضوح أكبر: «تأكيد إرادة الحياة معلنٌ عنه على أنه وحده الصحيح حاضراً، ففي الاستسلام الكامل للحياة وآلامها فقط، وليس في الاستسلام الشخصي الجبان والانسحاب، يجب أن يكون شيءٌ مُنجزاً للسيرورة العالمية»، «إن السعي من أجل إنكار إرادة الفرد هو بحماقة وعدم قيمة، وحتى أكثر حماقة من، الانتحار». «سوف يفهم القارئ المتمعِّن، حتى دون المزيد من الإيضاح، أي شكل يمكن أن تتخذه الفلسفة العملية القائمة على هذه المبادئ، وأن مثل هذه الفلسفة لا يمكنها احتواء الاغتراب عن الحياة، بل المصالحة الكاملة معها فقط».

سيفهم القارئ المتمعن، ولكن يمكن أن يُساء فهم هارتمان! وكم هو مسلٍّ بشكل لا يوصف أن يكون هارتمان قد أُسيء فهمه! أعلينا القول إن الألمان المعاصرين بعيدو النظر؟ يعتقد الرجل الإنجليزي الجريء أنهم يفتقرون إلى «رهافة الإدراك»، ويغامر في الحقيقة ليقول: «يبدو أن هناك شيئاً أخرقَ في العقل الألماني، شيئاً كليلَ الحدّ، وأرعنَ، وغيرَ لبق» ــ فهل سيناقضُ ألمانيٌّ

مقلِّد ساحرٌ كبير هذا؟ من المؤكد أننا نقترب، حسب تفسيره، إلى ذلك «الوضع المثالي الذي يصنع فيه الجنس البشري تاريخه بوعي»: لكننا ما زلنا بعيدين بشكل واضح عن ذلك الوضع المثالي الذي ربما يكون حتى أكثر مثالية حيث تقرأ البشرية فيه كتاب هارتمان بوعي. إذا وصلنا ذات مرة إلى هذه الحالة، فلن يسمح أي إنسان مرة أخرى بكلمات مثل «سيرورة العالم» تمرّ على شفتيه دون أن يبتسم، لأنه سيتذكر بذلك الوقت الذي استُمِع فيه إلى إنجيل هارتمان المُحاكي الساخر، واستُوعِبَ وهُوجم وبُجّل ورُوِّج له وقُدِّس بكل سذاجةِ ذلك «العقل الألماني»، وفي الواقع «بجدية البومة المبالغ فيها»، على حد تعبير غوته. لكن يجب على العالم أن يمضيَ قدماً، إذ لا يمكن تحقيق تلك الحالة المثالية بالحلم، بل يجب الصراع والنضال من أجل تحقيقها، ويكمن طريق الخلاص من هذه الجدية البُوميّة المضللة في البهجة فقط. سيأتي الزمن الذي سيمتنع فيه الفرد بحكمة عن كل إنشاءات سيرورة العالم أو تاريخ الإنسان، وقتٌ عاد المرء لا ينظر فيه إلى الجماهير على الإطلاق، بل إلى الأفراد الذين يقيمون نوعاً من الجسر عبر تيار الصيرورة الهائج. هؤلاء الأفراد لا يستمرون، كما كانوا، في أي سيرورة عملية إلى ما بعدهم، بل يعيشون بتزامنٍ أبدي معاً، وبفضل التاريخ، الذي يسمح بمثل هذا التعاون، فهم يعيشون في جمهورية العباقرة التي تحدث عنها شوبنهاور مرةً. ينادي عملاق إلى آخر عبر فتراتٍ مجدبة من الزمن، ويستمر هذا الحوار النبيل بين الأرواح، ولا تزعجه ثرثرة الأقزام الصاخبة الذين يزحفون تحته. مهمة التاريخ هي أن يكون الوسيط بينهم، وبالتالي التحريض المستمر وتقوية إنتاج العظمة. كلاّ، لا يكمن هدف الإنسانية في غايتها، بل في أسمى نماذجها فقط.

بالطبع، يردّ كُوميديُّنا على هذا بذلك الديالكتيك الرائع الذي هو صادق تماماً بقدر ما أن معجبيه مثيرون للإعجاب: «سيكون غير متوافقٍ تماماً مع مفهوم التطور أن نعزُوَ إلى سيرورة العالم مدة لا نهائية في الماضي، ما دام أن كل تطور يمكن تصوره وقتئذ يكون قد حدث بالفعل، وليس هذا هو الحال بالتأكيد (يا محتال!)، لذا بالشاكلة عينها لا يمكننا الإقرار بمدة غير محدودة للسيرورة

في المستقبل: كِلَا الأمرين يلغي مفهوم التطور نحو هدف (أوه، يا محتال مجدداً) وسيجعل سيرورة العالم تبدو مشابهة لمحاولات دانايدز(56) غير المجدية لسحب الماء. ومع ذلك، يجب أن يتزامن الانتصار الكامل للمنطق على غير المنطقي (آه، يا محتال المحتالين!) مع النهاية الزمنية لسيرورة العالم، مع يوم الحساب».(57) كلا، أيها الروح الصافية والساخرة، ما دام ما هو غير منطقي ما يزال سائداً كما هو الحال في هذه الأيام، وما دام ما يزال بإمكان المرء أن يتحدث باتفاق عام، على سبيل المثال، عن «سيرورة العالم»، كما تتحدث عنها أنت، فإن اليوم الآخر (يوم الحساب) ما يزال بعيد المنال: لأن الوجود ما يزال مبهجاً جداً على هذه الأرض، وما تزال هناك العديد من الأوهام تزدهر، على سبيل المثال، وَهْم معاصريك عنك، فنحن غير ناضجين بعدُ للعودة إلى عدمك: لأننا نعتقد أن الأمور ستكون أمرحَ عندما يبدأ الناس بفهمك، فأنت أسأتَ فهمَ إنسان اللا وعي. ولكن، على الرغم من ذلك، إن كان على الاشمئزاز أن يأتي بقوة كاملة، كما تنبأتَ لقرائك، وإذا كان تصويرك لحاضرك ومستقبلك يجب أن يكون صحيحاً ــ ولم يحتقرهما أحدٌ وازدراهما بقدر من الاشمئزاز مثلك ــ عندئذ سأكون سعيداً للتصويت مع الأغلبية، بالضبط بالطريقة التي اقترحتَها لزوال عالمك في مساء السبت القادم، في الساعة الثانية عشرة بالضبط، وسيُختم مرسومنا بالكلمات: ابتداءً من الغد لن يكون هناك وقتٌ ولا مزيد من الصحف. ولكن ربما يكون مرسومنا عبثاً ولن يكون له أيّ تأثير: حسناً، على أي حال سيكون لدينا وقتٌ كافٍ لتجربة جميلة. لنأخذ ميزاناً ونضع لا وعي هارتمان على أحد كفتيه ونضع سيرورة عالم هارتمان على الأخرى. هناك بشر يعتقدون أنه سيكون لهما نفس الوزن: لأن كلاً منهما يحتوي على عبارة سيئة بنفس القدر ونكتة بنفس القدر. ــ وحالما نفهم نكتة هارتمان، فلن يستخدم أحدٌ تعبيرَه عن «سيرورة العالم» إلا كمزحة. في الواقع، لقد حان الوقت للتقدم في جيش طويل كامل من الحقد الساخر ضد اضطرابات الحِسّ التاريخي، ضد الاحتفال المسرف بالسيرورة على حساب الوجود والحياة، ضد الاستبعاد الطائش لجميع وجهات النظر، وعلينا أن نمدح دائماً مؤلِّف فلسفة اللا وعي الساخر لكونه أول من

نجح في إدراك المضحك في مفهوم «السيرورة التاريخية» بوضوح، وجعل من الممكن، من خلال الجديّة الفريدة في عرضه، تقييمه حتى بوضوح أكبر. في الوقت الحالي لا داعي إلى أن نقلق بشأن سبب وجود «العالم»، ولماذا توجد «البشرية»، إلا إذا أردنا أن نطلق مزحةً: لكن غطرسة الدودة الإنسانية الصغيرة هي ببساطة أكثر الاشياء هزلاً وتسلية على الإطلاق على المسرح العالمي. ولكن اسأل نفسك فقط لماذا أنت، كفردٍ، موجودٌ، وإذا لم يستطع أحد إخبارك، فحاول فقط تبرير معنى وجودك بعديّاً، إن جاز التعبير، من خلال وضع غرضٍ لنفسك، وهدفٍ، «ولهذه الغاية»، و«لهذه الغاية» نبيلة وسامية. لا أعرف أي هدف آخر أفضل للحياة من الهلاك في السعي وراء العظيم والمستحيل: روح المبذر العظيم.(58) من ناحية أخرى، إذا كانت مذاهب الصيرورة السيادية ومرونة كل المفاهيم والأنماط والأنواع، ومذاهب الافتقار إلى أي تمييز أساسي بين الإنسان والحيوان ــ مذاهب أعتبرها حقيقية ولكنها مميتة ــ تُقحَم على الناس لمدة حياة أخرى مع الهوس للتعليم، فلا يُدْهَش أحدٌ إذا هلَك الشعب من الشقاء والبؤس، والتّحجُّر، والأنانية، أي إذا بدأ يتفكك ويكفّ عن أن يكون شعباً، وربما بعد ذلك يمكن استبداله في حلبة المستقبل بأنظمة أنانية فردية، وزَمَالات تهدف إلى الاستغلال الجشع لغير الزملاء، وإبداعات مماثلة من ابتذالٍ نفعي. كل ما يحتاج إليه المرء لإعداد الطريق لهذه الإبداعات، هو الاستمرار في كتابة التاريخ من وجهة نظر الجماهير والبحث فيه عن تلك القوانين التي يمكن اشتقاقها من احتياجات هذه الجماهير، أي من القوانين التي تحرّك الفئات الأدنى من المجتمع، من أسسها.(59) يبدو لي أن الجماهير تستحق الملاحظة من ثلاثة جوانب فقط: كنسخٍ باهتة لرجال عظماء مُنتَجَة على ورق رديء باستخدام لوحات مهترئة، ثم كقوة مقاومة للرجال العظماء، وأخيراً كأدوات في يد العظماء، أما فيما يتعلق بأي شيء آخر، فليأخذهم الشيطان والإحصاء! ماذا، أتستطيع الإحصاءات أن تبرهن على وجود قوانين في التاريخ؟ القوانين؟ نعم، إنها تثبت مدى انتظام الجماهير المبتذل والمثير للاشمئزاز: أيجب أن نطبق كلمة «قوانين» على تلك الآثار المستمدة من قوى الغباء، والتقليد، والحب،

والجوع؟ حسناً، سوف نعترف بذلك، ولكن مع ذلكَ فإن الافتراض التالي مؤكدٌ أيضاً: بقدر ما توجد قوانين في التاريخ، فإن القوانين لا قيمة لها والتاريخ لا يساوي شيئاً. لكن هذا النوع من التاريخ فقط يحظى بتقدير عالمي في الوقت الحاضر، وهو بالتحديد النوع الذي يعتبر الدوافع الجماهيرية العظيمة أهم وأثقل حقائق التاريخ، ولا ينظر إلى جميع العظماء إلا على أنهم التعبير الأوضح عن هذه الجماهير، أي فقاعات، إن جاز التعبير، مرئية على سطح السيل الجارف. ووفقاً لهذا، من المفترض أن تنتج الجماهير العظمة من نفسها، وهذا يعني أن النظام، باختصار، هو نتاج الفوضى، وفي النهاية، بالطبع، يُغنَّى نشيد المديح للجماهير التي تلد هذا النظام. ثمّ يسمّى «عظيماً» كل شيء حَرّك مثل هذه الجماهير لأي مدّة، والذي كان، كما يُقال، «قوة تاريخية». لكن أليس هذا خلطاً متعمداً بين الكم والنوعية؟ لو وَجَدت الجماهير البليدة فكرةً أو أخرى، فكرة دينية على سبيل المثال، ملائمة تماماً، ودافعت عنها بقوة وحملتها معها لقرون، حينها وعندها فقط يُسَمَّى مخترِعُ ومؤسسُ هذه الفكرة بالعظيم. لكن لماذا؟ الأنبل والأعظم لا يكون له أيّ تأثير في الجماهير: النجاح التاريخي للمسيحية، قوتها التاريخية، وثباتها واستمراريتها ــ كل ذلك لا يثبت لحسن الحظ شيئاً فيما يتعلق بعظمة مؤسِّسها، ما دامت أساساً ستشهد ضده لو أثبتت شيئاً يتعلق به: لكن بينه وبين ذلك النجاح التاريخي توجد طبقة أرضية ومظلمة جداً من العاطفة والخطأ والتعطش إلى السلطة والشرف، ومن التأثيرات المستمرة لقوى الإمبراطورية الرومانية،(60) وهي طبقة اكتسبت منها المسيحية ذلك المذاق الأرضي وقليلاً من التربة التي مكّنتها من الاستمرار في هذا العالم ومنحتها، إن جاز التعبير، متانةً. لا تعتمد العظمة على النجاح: كان ديموستينيس يتمتع بالعظمة، مع أنه لم يملك أي نجاح. لطالما عرقل أنقى وأصدق أتباع المسيحية المسيحيةَ نفسها وشكّكوا دائماً بنجاحها الدنيوي وما يسمى«القوة في التاريخ»، بدلاً من الترويج لها، لأنهم اعتادوا اتخاذ موقفٍ خارج «العالم»، ولم يكن لديهم أيّ اعتبار «لسيرورة الفكرة المسيحية»، لهذا السبب ظلّوا كقاعدةٍ غير معروفين تماماً ومجهولين للتاريخ. الشيطان هو، معبَّراً عنه بالطريقة المسيحية، الوصيُّ على هذا العالم

ورب النجاح والتقدم، فهو القوة الفعلية في كل قوى التاريخ، وسيبقى كذلك بشكل أساسي ــ على الرغم من حقيقةِ أن هذا سيَرنُّ بشكلٍ مؤلم في آذان عصر اعتاد تأليه النجاح والقوة في التاريخ. فهو عصر تمرّن بمنح أسماء جديدة للأشياء، بل وأعاد تعميد الشيطان نفسه. إنها بالتأكيد ساعة الخطر العظيم: يبدو أن البشر على وشك اكتشاف أن أنانية الأفراد أو الجماعات أو الجماهير كانت في جميع الأوقات رافعة للحركات التاريخية، لكنهم في نفس الوقت غير منزعجين، بأي حال من الأحوال، من هذا الاكتشاف، بل بدلاً من ذلك أَمَرُوا: ينبغي أن تكون الأنانية إلهنا. مع هذا الإيمان الجديد يستعد المرء بوضوح تماماً وعن قصد لإقامة تاريخ قادم على الأنانية: على أن تكون أنانية حكيمة فحسب، أنانية تفرض بعض القيود على نفسها لتضمن أمناً دائماً، أنانية تدرس التاريخ لكي تتعرف الأنانية غير الحكيمة السابقة. تعلَّم المرء، في سياق هذه الدراسة، أن للدولة دوراً خاصاً للغاية في النظام العالمي للأنانية الذي ينبغي تأسيسه: إذ يجب أن تكون راعيةً لكل الأنانيات الحكيمة لتحميها بقواتها العسكرية وقوى الشرطة ضد الانفجارات الرهيبة للأنانية غير الحكيمة. لنفس السبب يُلَقَّن التاريخ ــ ولا سيما تاريخ الحيوانات والإنسان التطوري ــ بعناية للجماهير الخَطِرة، لكونها غير حكيمة، وللطبقات العاملة: إذ من المعروف أن حبةً واحدة من التثقيف التاريخي قادرةٌ على تحطيم الغرائز والرغبات البليدة والفظة أو على قَوْدِها إلى درب الأنانية المهذبة. باختصار: الإنسان مهتم الآن، على حد تعبير إي. فون هارتمان، «بترتيب عملي ومريح للعيش في منزله الأرضي، متطلِّعاً إلى المستقبل بعين ممعِنة». يسمي الكاتب نفسه هذه الفترة بـ«رجولة الإنسانية»، وبالتالي يسخر مما يسمى الآن بـ«إنسان»، كما لو كان يُفهَم من هذه الكلمة الباحث الحصيف عن الذات، ويتنبأ أيضاً بأن عصراً عجوزاً مماثلاً يعقب هذه الفترة من الرجولة، وبالتالي يُنفِّس سخريته بوضوح على هؤلاء الرجال المُسِنّين الذين هم نموذجٌ لعصرنا: لأنه يتحدث عن التأمل الناضج الذي يستعرضون به «كل المعاناة العاصفة والجامحة في مسار حياتهم الماضية، ويدركون مدى عبث الأهداف التي كانوا يفترضون أنهم كانوا يسعون إليها». لا، تَلِي رجولةَ تلك الأنانية

المحسوبة والمتعلّمة تاريخياً شيخوخةٌ تتشبث بالحياة بجشع بغيض ودون كرامة، ومن ثَمّ بمشهدٍ آخر نجد فيه:

المشهد الأخير لسائر المشاهد،

الذي يُنهِي هذا التاريخ الغريب الحافل بالحوادث،

هو الطفولية الثانية، ومجرد نسيانٍ،

بلا أسنان، بلا عيون، بلا لسان، دون كل شيء.(61)

سواء كانت مخاطر حياتنا وثقافتنا تأتي من هؤلاء المسنين عديمي الأسنان والمذاق، أو كانت تأتي من قبل ما يُسَمى «رجالَ» هارتمان، فإننا نعتزم ضد كليهما أن نتمسك بحقوق شبابنا بأسناننا، ولن نتعب أبداً في الدفاع عن المستقبل ضد أولئك المتمردين الذين يسعون إلى تحطيمه. ومع ذلك، يجب أن نلاحظ، في هذه المعركة، واقعةً محزنة بشكل خاص: أن انحرافات الإحساس التاريخي التي يعاني منها الحاضر، يُرَوَّج لها وتُشَجَّع وتُستخدَم بشكل متعمد.

وتُستخدم ضد الشباب لتدريبهم على تلك الرجولة الناضجة من الأنانية التي يُطمح إليها في كل مكان. إنها تُوَظّفُ لكسر النفور الطبيعي للشباب تُجاه تلك الأنانية الرجولية ــ غير الرجولية من خلال تغييرها بحيث تظهر في ضوء العلم الساحر. من المعروف جيداً ــ في الواقع، معروف جيداً جداً ــ ما الذي يقدر عليه فائضٌ معيّن من التاريخ: ألا وهو اقتلاع أقوى غرائز الشباب، واندفاعه، وتحدّيه، ونكرانه للذات وحبّه، وإخماد حرارة إحساسه بالعدالة، وردع وقمع رغبته كي تنضج ببطء مع الرغبة المضادة في أن يكون جاهزاً ومفيداً ومثمراً بأسرع ما يمكن، والتاريخ يصيب صِدق وجرأة مشاعر الشباب بالشك، حتى إنه قادر على تجريده من أجْوَدِ امتيازاته، ومن قدرته على غرس الإيمان في نفسه بفكرة عظيمة بثقة تامة، ثم السماح لها بالنمو في نفسه إلى فكرة

أكبر. يمكن أن يفعل فائضٌ معين من التاريخ كل هذا. لقد رأيناه يفعل ذلك: ومن خلال تغيير الآفاق باستمرار والقضاء على الجو المحيط، عادَ لا يسمح للإنسان أن يشعر ويعمل بشكل لا تاريخي. بعدها يعود من أفق لا متناهٍ إلى نفسه، إلى أصغر مِنْطقة أنانية، وهناك يجب أن ينمو ذابلاً وجافاً: ربما سيصل إلى الذكاء، لكن لن يبلغ الحكمة قطعاً. يمكن للمرء أن يتحدث معه، فهو يقدّر الحقائق ويتصالح معها، وليس نزّاعاً إلى الانفجارات العاطفية، ويومض، ويفهم كيفية السعي وراء منفعته الخاصة أو لصالح حزبه في منافع ومساوئ الآخرين. إنه يتجاهل التواضع غير الزائد ويصبح تدريجياً «رجلاً» هارتمانيّاً، من ثَم «شيخاً». لكن هذا ما هو مُفْتَرضٌ أن يصبح عليه، هذا بالضبط هو معنى المطلب الساخر الذي هو «استسلام الشخصية الكامل لسيرورة العالم» ــ من أجل هدفها، وهو خلاص العالم، كما يؤكد لنا ذلك المحتال، أيْ إي. فون هارتمان. حسناً، إرادة وهدف هؤلاء «الرجال» الهارتمانيين «وكبار السن» ليس على وجه التحديد خلاص العالم: لكن العالم سيكون بالتأكيد أكثر انعتاقاً إذا حُرِّر من هؤلاء الرجال وكبار السن. فعندها سيأتي مَلَكُوت الشباب. ــ

(51) مقابل Cynicism، ويمكن أن تترجم إلى النابية، والكلبية، والتشاؤمية، والتهكمية، وهي تعود في النهاية إلى الفلسفة الكلبية.

(52) حشرة صغيرة بلا أجنحة غالباً ما تتطفل على عائل أو مضيف من الثدييات مثل الإنسان والحيوانات.

(53) باللاتينية في الأصل ex causis efficientibus.

(54) باللاتينية في الأصل ex causa finali.

(55) أو نقيض المسيح.

(56) تقول الأسطورة الإغريقية إن دانايدز هن البنات الخمسون اللواتي كان عقابهن هو أن تجبر كل واحدة منهن على حمل إبريق ماء تتسرب منه المياه

لملء حوض استحمام دون قاع لغسل ذنوبهن. وكانت العقوبة أبدية لأن الماء كان يتسرب دائماً.

(57) يوم الدينونة أو الآخرة.

(58) باللاتينية في الأصل، وهي حرفيّاً بمعنى «عدم الاهتمام بالحياة» animae magnae prodigus انظر، (Horace، Odes I.xII.38)

(59) الترجمة الحرفية بدلاً من أسس هي «طين وصلصال».

(60) باللاتينية في الأصل imperium romanum.

(61) انظر: As You Like It، Act II Scene vii.

الفصل 14

ـ 10 ـ

مفكِّراً بالشباب في هذه المرحلة أصرخ: أيتها البلاد! أيتها البلاد! كفى وأكثر من كفى للرحلة الطائشة والضالة فوق بحار مظلمة وغريبة! الآن يلوح أخيراً الساحلُ في الأفق: يجب أن ننزل عليه مهما كان شكله، فأسوأ الموانئ للجوء أفضل من العودة إلى اللا نهاية اليائسة المتشككة. لنتمسك بالنزول الآن، وفيما بعد سنجد بلا شك موانئ جيدة مناسبة بما فيه الكفاية، ونجعل نهج أولئك الذين يتبعوننا أسهل.

كانت هذه الرحلة خطيرة ومثيرة. ما أبعدنا الآن عن التأمل الهادئ الذي شاهدنا به سفينتنا لأول مرة تُبحرُ. وجدنا أنفسنا، في سعينا وراء مخاطر التاريخ، أكثر عُرضةً لها. نحن أنفسنا نحمل بشكل واضح آثار تلك الآلام التي ابتُليت بها البشرية المعاصرة نتيجةً لإفراط التاريخ، وهذه الأطروحة بالتحديد، كما لن أخفي هذا، تُظهر طابَعها الحديث، طابَع الشخصية الضعيف، في الإفراط في النقد، في عدم نضج إنسانيتها، وفي تحولاتها المتكررة من سخرية إلى تهكم، من كبرياء إلى شك. ومع ذلك، فأنا أثق بالقوة الملهمة التي وَجَّهت سفينتي بدلاً من عبقري، ولدي إيمان بالشباب، لدي إيمان بأنه وَجّهني بشكل صحيح من خلال إجباري على اتخاذ موقفِ احتجاج ضد التعليم التاريخي للشباب الحديث، وبِفَرْض هذا الاحتجاج للمطالبة بأن يتعلم الإنسان قبل كل شي أن يعيش وأن يستخدم التاريخ فقط في خدمة الحياة التي تعلّمَ أن يعيش. يجب أن يكون المرء شاباً لكي يفهم هذا الاحتجاج. في الواقع، نظراً إلى الشيخوخة المبكرة لشبابنا اليوم، بالكاد يمكن للمرء أن يكون صغيراً بما يكفي حتى يقدر بالضبط على فهم ما احْتُجّ عليه هنا. مثالٌ سيساعد

في توضيح ما أعنيه. استيقظت في بعض الشباب في ألمانيا، منذ ما يزيد على قرن من الزمان تقريباً، غريزة طبيعية لما نسمّيه الشعر. أنفترض أن الأجيال السابقة وكذلك المعاصرة لهم لم تتحدث على الإطلاق عن ذلك الفن الذي كان غريباً عليها وغير طبيعي بالنسبة إليها؟ نعرف أن العكس هو الصحيح: لقد تأمّلت وكتبت وجادلت حول «الشعر» بكل قوتها، منتجةً كلماتٍ عن كلماتٍ عن كلماتٍ عن كلمات. تلك اليقظة الأولية للكلمة إلى الحياة لم تَعْنِ على الفور موتَ هؤلاء المنتجِين للكلمة، فهم بمعنًى من المعاني ما زالوا يعيشون حتى اليوم، لأنه إذا كان صحيحاً، كما يقول جِبُّون Gibbon، أن زوال العالم لا يستغرق شيئاً سوى الوقت، وإن كان طويلاً، فلن يستغرق الأمر سوى وقت، وإن كان أطول حتى، كي تموت فكرة خاطئة في «أرض التدرج» ألمانيا. ومع ذلك، ربما يكون هناك الآن مِئَة شخص أكثر مما كان عليه قبل مِئَة عام ممن يعرفون ما هو الشعر. ربما بعد مِئَة عام سيكون هناك مِئَة آخرين، وسيكونون قد تعلّموا في هذه الأثناء ما هي الثقافة، وأن الألمان لا يمتلكون حتى الآن أي ثقافة، مهما كانوا يتحدثون ويتفاخرون بها. من وجهة نظرهم، سيظهر رضا الألمان العام بـ«تعليمهم» كأمر لا يمكن تصديقه وسخيف بمقدار كلاسيكية جوتشيد Gottsched المعترف بها على نطاق واسع أو صيت راملر Ramler باعتباره بِنْدَار الألماني حالياً. ربما يستنتجون أن هذا التعليم هو مجرد نوع من المعرفة عن التعليم، ومعرفة زائفة وسطحية في ذلك. أعني زائفة وسطحية لأن الإنسان الألماني تَحَمّل التناقض بين الحياة والمعرفة وفشل تماماً في رؤية خصائص تكوين الشعوب المثقفة حقاً: تلك الثقافة لا يمكن أن تنمو وتزدهر إلا من الحياة فقط، أما في حالة الألمان فهي دائماً ما تكون مثبّتة مثل وردة ورقية أو مسكوبة مثل مسحوق السكر، ولهذا السبب يجب أن تبقى دائماً كاذبة وعقيمة. ومع ذلك، ينطلق تعليم الشباب الألماني من هذا المفهوم الكاذب وغير المثمر للثقافة: فهدفه، في جوهره، ليس الإنسان المثقف الحر على الإطلاق، بل الباحث ورجل العلم، وفي الواقع، الرجل العلمي الذي سيكون مفيداً في أسرع وقت ممكن، والذي يتخذ موقعاً خارج الحياة لكي يعرفها بوضوح تام. ونتيجته، منظوراً إليها بنحو

تجريبي فَجّ، هو المتزمت philistine التعليمي الجَمَالي التاريخي، الثرثار المُبكر والجديد حول الدولة والكنيسة والفن، والحَسّاس لآلاف الأحاسيس، المَعِدة النهمة التي لا تعرف مع ذلك الجوع والعطش الصادقين. أن يكون التعليم بهذا الهدف وهذه النتيجة تعليماً مخالفاً للطبيعة، هو أمر لا يمكن أن يشعر به إلا الإنسان الذي لم يُجبَل بالكامل بعد عبر هذا التعليم، ولا تشعر به سوى غريزة الشباب، لأن الشباب ما يزال يمتلك غريزة الطبيعة التي لا يمكن تدميرها بشكل مصطنع وقسري من خلال هذا التعليم. لكن من يريد، بدروه، كسر هذه التنشئة عليه أن يساعد الشباب على التحدث عن أنفسهم، عليه أن يضيء طريق مقاومتهم اللا واعية، بوضوح المفاهيم، ضد هذا التعليم وتحويلها إلى إدراكٍ واعٍ وصريح. لكن كيف يمكنه تحقيق مثل هذا الهدف الغريب للغاية؟

بشكل أساسي بتدمير خرافةِ: الإيمان بـضرورة هذه العملية التعليمية. ما زال هناك اعتقادٌ شائع بأنه لا توجد هناك إمكانية أخرى غير واقعنا الحاضر المؤلم للغاية. تَفَحّص فحسب أدبيات التعليم العالي على مدى العقود الماضية لهذا الغرض: سيدرك المتفحص بذهول شديد كيف تُصَوَّر النيّة الكاملة للتعليم، بشكل موحّد، في جميع المقترحات المتذبذبة والخلاف المحتدم، وكيف يُقْبَل النِّتَاجُ السائد الذي هو «الإنسان المتعلم»، مثلما هو مفهوم في الوقت الحاضر، بلا تفكيرٍ كأساسٍ ضروري وعقلاني لكل تعليم مستقبلي. لكن القانون الرتيب سيُقرَأ على النحو التالي: يجب على الشاب أن يبدأ بمعرفة للتعليم،(62) ليس حتى بمعرفة الحياة وأقل من ذلك بمعرفة الحياة والخبرة ذاتهما. وهذه المعرفة التربوية تُغرس في الشاب كمعرفة تاريخية، أي إن رأسه مكتظ بعدد هائل من المفاهيم المستمَدَّة من معرفة غير مباشرة للغاية للعصور والشعوب الماضية، وليس من الملاحظة المباشرة للحياة. رغبته في تجربة شيء ما بنفسه والشعور بنظام حيّ متماسك من تجاربه الخاصة التي تنمو داخله ــ تُشَوَّش هذه الرغبة و، إن جاز التعبير، تصير في حال سُكرٍ بالوعد الوهميّ بأنه من الممكن في غضون سنوات قليلة أن نُلَخّص أعلى

وأبرز تجارب العصور السابقة، وبالتحديد أعظم الأزمان. إنها نفس الطريقة السخيفة التي تقود رسّامينا ونحّاتينا الشباب إلى المعارض وصالات العرض بدلاً من ورشة عمل الأستاذ، وقبل كل شيء إلى ورشة العمل الوحيدة، إلى الأستاذ الوحيد، ألا وهو الطبيعة. كما لو كان يمكن للمرء أن يتجول بسرعة في التاريخ مستخلِصاً مهارات وتقنيات الماضي، أي الثمار الحقيقية لحياة الماضين، وكأن الحياة لم تكن حِرْفة يجب تعلّمها وممارستها باستمرار من الألف إلى الياء، إذا أردنا أن لا تنتهي بإنتاج مجرد ثرثارين وأغبياء!

اعتبر أفلاطون أن من الضروري تعليم الجيل الأول من مجتمعه الجديد (الدولة المثالية) بمساعدة كذبة ضرورية قوية: يجب تعليم الأطفال الاعتقادَ بأنهم كانوا جميعاً قاطنين تحت الأرض في حالِ حُلمٍ لوقتٍ ما، حيث عُجِنوا وجُبِلوا من قِبَل حِرَفِيّ الطبيعة. من المستحيل التمرد على هذا الماضي! ومن المستحيل أن تعمل ضد عمل الآلهة! كان يجب اعتباره قانونَ طبيعةٍ لا يُنتهك: مَنْ وُلِد فيلسوفاً لديه ذهبٌ في جسده، ومن وُلد جندياً له الفضة فقط، ومن وُلد عاملاً لديه حديد ونحاس. يوضّح أفلاطون أنه مثلما لا يمكن أن تمزج بين هذه المعادن، لذلك لا يكون من الممكن على الإطلاق أن تمزج أو تخلط نظام الطبقات، الإيمان بهذه الحقيقة الأبدية(63) لهذا النظام هو أساس التعليم الجديد ومعه الدولة الجديدة ـ لذا يؤمن الألماني الحديث الآن بالحقيقة الأبدية لنظامه التعليمي، ولنوع ثقافته: ومع ذلك، فإن هذا الاعتقاد سينهار، تماماً مثلما كانت الدولة الأفلاطونية ستنهار إذا واجهت الكذبة الضرورية بحقيقة ضرورية: حقيقة أن الألماني ليس لديه ثقافة، لأنه بسبب تعليمه لا يستطيع الحصول عليها. فهو يسعى إلى الحصول على الزهرة دون الجذر والساق، لذلك يطلبها عبثاً. تلك هي حقيقة بسيطة، حقيقة غير سارة وفجّة، حقيقة ضرورية حقاً.

لكن في هذه الحقيقة الضرورية يجب تعليم جيلنا الأول: من المؤكد أنه سيعاني الكثير من هذه الحقيقة، لأنه يتوجب عليه تعليم نفسه من خلالها،

وعلاوة على ذلك، بالتعارض مع نفسه، عليه بوسائل هذه الحقيقة الضرورية اكتساب عاداتٍ جديدة وطبيعة جديدة، وترك عاداته القديمة وطبيعته الأولى خلفه: وبالتالي يمكنه أن يخاطب نفسه بالإسبانية القديمة: Defienda me Dios de my (احرسني يا اللّه من نفسي)، أي من الطبيعة التي اكتسبتها من خلال نشأتي. يجب تذوق هذه الحقيقة قطرةً فَقَطرة، كدواءٍ مرّ وعنيف، ويجب على كل فرد من هذا الجيل أن يتغلّب على نفسه ليحكم على نفسه، وهو أمر يمكن تحمله باعتباره حكماً على كل العصر: نحن بلا تعليم، وأكثر من ذلك، إننا مدللون من أجل العيش، من أجل أن نرى ونسمع بشكل صحيح وبسيط، للاستيعاب السعيد للأقرب والطبيعي، وحتى الآن ليس لدينا أساسُ ثقافةٍ، لأننا أنفسنا لسنا مقتنعين بوجود حياة حقيقية فينا. مجزَّأٌ ومفتتٌ نصفُنا الكلي بشكل آلي إلى جزء داخلي وخارجي، مملوء بالمفاهيم مثل أسنان التنين، مما ينتج تنانينَ مفاهيمية، ويعاني، علاوة على ذلك، من داء الكلمات وعدم الثقة في أي إحساس شخصي لم يُختَم بالكلمات: وعلى هذا النحو فهو غير حيّ، ولكنه مُصَنِّع نشط بشكل خارق للكلمات والمفاهيم ــ ربما ما يزال لدي الحق في أن أقول عن نفسي: cogito ergo sum، «أنا أفكر، إذن أنا موجود»،(64) ولكن ليس «أنا أحيا، إذن أنا أفكر» vivo، ergo cogito. (65) «الوجود» الفارغ مضمون لي، لكن ليس حياة كاملة و«خضراء»: شعوري يضمن فقط أنني كائن مفكر، وليس كائناً حيّاً، وأنني لستُ حيواناً ولكن على الأكثر مُفكر. أعطني الحياة فقط، وسأخلق لك ثقافةً منها! ــ على هذا النحو ينادي كل فرد من هذا الجيل، وسوف يتعرف كل هؤلاء الأفراد بعضهم إلى بعضهم الآخر من هذه الدعوة. فمَن يمنحهم هذه الحياة؟

لا إله ولا إنسان، بل شبابهم فقط: أطلِقوا سراحه، وبذلك ستحررون الحياة معه. لأن الحياة كانت مختفية، في السجن، لم تذبل ولم تمت بعد، اسألوا أنفسكم فحسب!

لكنها مريضة، هذه الحياة غير المقيّدة، ويجب أن تُشفَى. إنها مصابة بأمراض عديدة، إنها لا تعاني من ذكرى قيودها فقط ــ إنها تعاني، وهذا ما يهمنا بشكل أساسي، من مرض التاريخ. لقد هاجم فائضُ التاريخ قِوى الحياة التشكيلية، وعادت لا تعرف كيف تستخدم الماضي كطعامٍ مغذٍّ. الشر رهيب، ومع ذلك! إذا لم تكن لدى الشباب موهبة الطبيعة المستبصرة، فلن يعرف أحدٌ أنها شرّ أو أنها جنّةُ عافيةٍ قد ضاعت. هذا الشباب نفسه يخمّن أيضاً، بالغريزة العلاجية لنفس هذه الطبيعة، كيفية استعادة تلك الجنّة، إنه يعرف المراهم والأدوية ضد داء التاريخ، وضد فائض التاريخ، ولكن ما أسماء هذه العلاجات؟

لا تتفاجأ الآن، إنها أسماء السموم: إذ يُطلَق على ترياق التاريخي اسم ــ اللا تاريخي وما فوق التاريخي. ونعود بهذه الأسماء إلى بداية تأملاتنا وإلى هدوئها.

بكلمة «اللا تاريخي» أشير إلى فن وقوة القدرة على النسيان وحصر الذات في أفق محدود. أسمّي «فوق التاريخي» القوى التي تُحَوّل الأنظار من الصيرورة نحو ذلك الذي يضفي على الوجود طابَعاً أبدياً وثابتاً، أي نحو الفن والدين. العلم ــ لأنه العلم الذي سيتحدث هنا عن السموم ــ يرى في هاتين القوتين قوى معادية: لأن العمل يعتبر الطريقة الوحيدة الصحيحة والحقيقية لملاحظة الأشياء، أي الطريقة العلمية الوحيدة، هي التي تدرك في كل مكان ما «كان»، أي الأشياء التاريخية، ولا تدرك في أي مكان ما «يكون»، أي الأشياء الأبدية. إن العلم يعيش في تناقض داخلي مع القوى الأبدية للفن والدين، تماماً كما يكره النسيان، وهو موت المعرفة، ثم إنه يسعى إلى إلغاء كلّ قيود الأفق وإلقاء الإنسان في بحرِ ضوءٍ لا نهائي وغير محدود من الصيرورة المعروفة.

لو استطاع الإنسان العيش فيها فقط! كما هو الحال مع المدن إذ تنهار على إثر زلزالٍ وتغدو مهجورة، ويقيم الإنسان منزله، في عَجَلٍ، على أرض بركانية، ويرتجف من الخوف، كذلك تنهارالحياة نفسها وتصبح واهنة ومثبطة العزيمة عندما يَسلب المفهوم ــ الزلزال، الذي يثيره العلم، الإنسانَ من أساس كل

راحته وأمنه، الإيمان بالدوام والأبدية. والآن، هل تسيطر الحياة على المعرفة والعلم، أو أن المعرفة تهيمن على الحياة؟ أيٌّ من هاتين القوتين هي الأعلى والحاسمة؟ لا أحد يشك أن الحياة هي الأعلى، السلطة المهيمنة، لأن أي معرفة تدمّر الحياة كانت ستدمر نفسها أيضاً. المعرفةُ تفترض الحياةَ، وعلى هذا النحو فإن لها نفس الاهتمام في الحفاظ على الحياة التي يتمتع بها كل كائن في وجوده المستمر. وهكذا يتطلب العلم رقابةً وحماية أعلى، تحتل نظافة الحياة مكاناً قريباً إلى جانب العلم، ويُقرأ أحد بنود هذه النظافة كالتالي: ما هو غير تاريخي وما فوق التاريخي هما الترياق لخنق الحياة بواسطة التاريخي، وللدّاء التاريخي. من المحتمل أننا نحن، الذين نعاني من مرض التاريخ، سوف نعاني أيضاً من الترياق. ولكن كوننا نعاني منه، ليس دليلًا على أن العلاج ليس صحيحاً.

وهنا أُدرِك مهمة ذلك الشباب، ذلك الجيل الأول من المقاتلين وقتلة التنين الذي يسبق تعليماً أجمل وأسعد وأكثر إنسانية دون أن يكون لديه أكثر من مجرد فكرة مملوءة بالوعد بهذه السعادة المستقبلية والجمال القادم. سيعاني هذا الشباب من الداء والترياق في نفس الوقت: ومع ذلك فإنه يعتقد أنه يحق له التباهي بصحة أقوى وبشكل عام بطبيعة طبيعية أكثر من أسلافه، أي الناس «المتعلمين» و«كبار السن» في الحاضر. لكن مهمة الشباب تتمثل في زعزعة مفاهيم هذا الحاضر عن «الصحة» و«التعليم»، وإثارة السخرية والكراهية ضد هذه المفاهيم الوحشية الهجينة، وستكون العلامة الضمنية لصحته الفُضلَى هي بالتحديد أن هذا الشباب لا يمكنه استخدام أي مفهوم أو شعارات حزبية، من بين عُملة الكلمات الحديثة والمفاهيم المتداولة حالياً، لتعيين جوهرهم الخاص، إذ إن قَنَاعته تُشتَقّ من خلال قوة نشطة فيه، قوة تكافح وتُمَيِّز وتُحَلِّل، ومن إحساس متزايد بالحياة في كل لحظة مناسبة. قد يُنكر أحَدٌ أن هذا الشباب حصل على تعليم بالفعل، ولكن لأي شباب يكون ذلك عاراً؟ قد يُقال إنه فظٌّ وغير معتدل ــ لكنه لم يبلغ بعد الشيخوخة أو الحكمة بما يكفي لمعرفة موقعه، وقبل كل شيء، لا يحتاج إلى التظاهر

والدفاع عن تعليم جاهز، وهو يتمتع بكل العزاءات والامتيازات التي تتماشى مع سِنّ الشباب، خاصة امتياز الصدق الشجاع الطائش، وعزاء الأمل الملهم.

أعرف أن هؤلاء الشباب المتفائلين يفهمون من كثب كل هذه العموميات، وأنهم من خلال تجربتهم الخاصة سوف يترجمونها لأنفسهم إلى عقيدة مقصودة شخصياً. قد لا يرى الآخرون في الوقت الحالي سوى الأوعية المغطاة التي قد تكون فارغة: حتى يرون ذا يومٍ أن الأطباق لدهشتهم مملوءة، وأن الهجمات والمطالب ودوافع الحياة والعواطف كانت محاصرة ومضغوطة معاً في هذه العموميات، التي لا يمكن أن تبقى مغطاة لفترة طويلة. أترك هؤلاء المشكِّكين إلى الزمن، الذي يُسَلِّط الضوءَ على كل الأشياء، وأنتقل في الختام إلى تلك الجماعة من المتفائلين لأخبرهم بمَثَلٍ عن مسار وتقدم علاجهم، وخلاصهم من الداء التاريخي، وبالتالي تاريخهم الخاص، حتى اللحظة الزمنية التي يصبحون عندها أصِحّاءَ بما يكفي للانخراط في دراسة التاريخ من جديد، واستخدام التاريخ في ظل الحياة، بهذا المعنى الثلاثي، أي الأثري أو القديم أو النقدي. سيكونون في ذلك الوقت أجهل من «المتعلمين» في الوقت الحاضر، لأنهم سيكونون قد نسوا الكثير وفقدوا أيضاً كلَّ ميل حتى للنظر إلى ما يريد هؤلاء المثقفون معرفته قبل كل شيء. خصائصهم المميزة، من وجهة نظر أولئك المتعلمين، هي على وجه التحديد افتقارهم إلى «التعليم» ولا مبالاتهم وتحفظهم تجاه الكثير مما له سمعة عالية، وحتى تجاه الكثير مما هو جيد. لكن في هذه المرحلة النهائية من علاجهم سيكونون قد أصبحوا بشراً ثانيةً وكَفّوا عن أن يكونوا مجرد مجموعة من التكتلات الشبيهة بالبشر ــ ذلك شيء! ذلك شيء ما يزال أمَلاً! ألا تخفق قلوبكم فرَحاً عند التفكير بهذا، أيها الشباب المتفائلون؟

وكيف نصل إلى هذا الهدف؟ سوف تسألون. أطْلَقَ إلهُ دلفي في بداية الرحلة نحو هذا الهدف وحيَهُ إليكم: «اعرف نفسك». إنه قول صعب: لأن ذلك الإله

«لا يخفي شيئاً ولا يقول شيئاً، بل يلمح فقط»، كما قال هيرقليطس. فما الذي يشير إليه بالنسبة إليكم؟

كانت هناك قرون وَجَد فيها الإغريقُ أنفسهم يواجهون خطراً مشابها لذلك الذي يواجهنا: خطر أن نكون غارقين بما كان ماضياً وأجنبياً، ومن الهلاك عبر «التاريخ». لم يعيشوا أبداً في عِصمةٍ بشكل فخور: كان «تعليمهم» بالأحرى، ولفترة طويلة، خليطاً من الأشكال والأفكار الأجنبية والسامِيّة والبابلية والليدية والمصرية، ودينهم معركة حقيقية لجميع آلهة الشرق: هذا مشابه للطريقة التي فيها «التعليم الألماني» والدين يمثلان فوضى صراعٍ داخلي لكل البلدان الأجنبية وكل العصور القديمة. ومع ذلك، بفضل ذلك القول الأبولوني {أي «اعرف نفسك»}، لم تصبح الثقافةُ الهِلِّينية مجرد تجميع لأشياء عديدة قطّ. تعلّم الإغريق تدريجياً تنظيمَ الفوضى بالتأمل حول أنفسهم طبقاً لتعاليم دلفي، أي بالتأمل حول احتياجاتهم الحقيقية، وترك متطلباتهم الزائفة تتلاشى. وعلى هذا النحو استوْلَوْا على أنفسهم ثانيةً، ولم يبقوا طويلاً الورثة المُثْقَلين بالأعباء ومقلِّدي الشرق بأسره، بعد صراع شاق مع أنفسهم وفي خلال التطبيق طويل الأمد لذلك القول، حتى إنهم أصبحوا أسعدَ مُثْرِين ومُزيدين للكنز الموروث، وأول الوافدين ونماذج جميع الشعوب المتحضرة في المستقبل.

هذا مَثَلٌ لكل واحد منا: يجب عليه تنظيم الفوضى في داخله من خلال التفكير في احتياجاته الحقيقية. يجب أن يتمرد صدقه وشخصيته الحقيقية والقديرة في وقتٍ ما على التقليد المستمر ــ تقليد الكلام وتقليد التعليم ــ الذي يجده في كل مكان حوله، ثم يبدأ في إدراك أن الثقافة يمكن أن تكون شيئاً آخر غير زخرفة الحياة، أعني أنها في الأساس دائماً مجرد تورية وتمويه، لأن كل زينة تستر ما زُيِّن. وهكذا سيُكشف له عن المفهوم الإغريقي للثقافة ــ على عكس المفهوم الروماني ــ، مفهوم الثقافة كطبيعة physis جديدة ومُحَسَّنة، دون داخليٍّ وخارجيٍّ، دون تَصَنُّع وتقليد، مفهوم الثقافة باعتباره انسجامَ

الحياة والفكر والمظهر والإرادة. وهكذا سيتعلّم من تجربته الخاصة أن الإغريق حققوا انتصاراً على جميع الثقافات الأخرى من خلال القوة العليا لطبيعتهم الأخلاقية، وأن كل زيادة في الصدق ينبغي أن تكون أيضاً تقدماً تمهيدياً للثقافة الحقيقية: على الرغم من أن هذا الصدق قد يُلحق أحياناً ضرراً جسيماً بمفهوم الثقافة التي تتمتع بالاحترام في وقتها، وعلى الرغم من أنه يُعَجِّل بسقوط ثقافة مزخرفة بأكملها.

تمت الترجمة في 5.1.2021

المترجم: قحطان جاسم

(62) في الترجمة الإنگليزية وردت culture وهي ترجمة غير دقيقة لمفردة Bildung الألمانية التي تعني هنا «التربية» أو الإحاطة بالتعليم وأصوله والمعارف التي يتلقاها الطالب خلال دراسته، أو «التعليم»، ولهذا أستخدم هنا الأصل الألماني في الترجمة. (ملاحظة المترجم)

(63) باللاتينية في الأصل aeterna veritas.

(64) عبارة الفيلسوف الفرنسي الشهير رينيه ديكارت. أما نصها كما وردت في النسخة الألمانية فهو: Ich denke، darum bin ich.

(65) وردت في النص الألماني كما يلي: Ich lebe، darum denke ich.

الفصل 15

الفهرس

النهاية - الفصل 16